وحين نصح بأن يعفو المرء إلى سبعين مرة سبع مرات ، فإنما كان يعلِّمنا كيف نتفادَى لَغَط القلب وقُرْحَةَ المعدة وغيرهما من الأدْوَاء) .

وقصة العفو عن الهفوات أكثر من سبعين مرة رويت فى إنجيل «متى» . ورويت كذلك فى سنن النبى ﷺ ، فعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنه : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول اللّه ، كم أعفو عن الخادم ؟ قال «كل يوم سبعين مرة» [1] **وفى رواية أن رجلاً أتى رسول اللّه فقال له : إنَّ خادمى يسىء ويَظْلِمُ ، أَفأضربه ؟ قال : «تعفو عنه كل يوم وليلة سبيعن مرة»** [2] .

أما محبة الأعداء فلعلَّها تعنى إيثار العفو عنهم ، وتنقية القلب من الضغائن عليهم ، وترك الانشغال بما أسلفوا من سيئات ، ذلك الإنشغال الذى لا ثمرة له إلاّ تواصل الأحزان وطول الشكايات ، وَندْب ما تتورَّط فيه الطباع الغليظة من مظالم .

أما أن تكون عواطف الإنسان سواء تجاه من يحسن إليه ومن يجور عليه فذاك مستحيل .

إنَّ المرء يشكر نُعمى المحسنين ، ويحمد عَراقة الأمجاد ويودّ عشرتهم .

وإنه ليفر من دناءة الأدنياء ، ويعاف القرب من نفوسهم والتعرض لمساويهم ؛ فكيف يحبُّهم ؟! .

إنَّ ابن آدم الصالح كان طبيعياً فى مشاعره ، ومنطقياً مع نفسه ومع العدل عندما كره أخاه القاتل ، وتربَّص به القصاص الواجب ، وقال :

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3]

على أن المؤمن مع ذلك كبير القلب ، والقلب الكبير ليس تربة لجذور الغلِّ تتشبث فيه وتمتدّ ، كلا . إنّ الحقد عنصر غريب عليه ، ولذلك ما إن يمرُّ به طيفُه حتى يتقلَّص ويزول .

ثم إنَّ للمؤمن شغلا بمستقبله فى الأُخْرَى والإعداد له فى هذه الدنيا .

والتفرُّغ للخصومات دَيْدَن من لا عمل لهم إلا اللجاجة وإيثار النزاع .

كذلك كان العرب فى جاهليتهم حتى نزل القرآن يناديهم :

(١ – ٢) الترمذى .
(٣) المائدة آية ٢٩ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾(١)

فجمعهم على الحق وشغلهم به بدل أن يشتغل بعضهم بالبعض الآخر .

وقد عادت هذه الجاهلية إلى الجماهير الفارغة من أمتنا ، فهم بين مُقاتَلات وثارات لا تنتهى ، لأنهم ليسوا أصحاب رسالة يَحْيَون لها وينشغلون بحقوقها !! .

إنَّ الشبه قائم بين طباع العظماء وإن اختلفت ألسنتهم وألوانهم ، ذلك لأن بذور السمُوِّ تنشأ بين شمائلهم وهم أطفال ، ثم تقوى مع اشتداد أعوادهم ، فهى خصائص يزوِّد اللّه من يشاء من خلقه ليقوم فى الحياة بعمل كبير أو يؤدِّى رسالة رائعة .

وأولو المواهب النَّفسية والعقلية الفارعة سِناد رَكين للأمم التى يقودونها ، والأعباء التى يحملونها .

ولذلك دعا رسول اللّه - فى إبّان غُرْبة الإسلام وقلَّته - أن يُعزِّه بأحد العُمَرين : عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام . .

فكان الأول أسعد الرجلين وأحظاهما عند اللّه .

وعندما وفدت قبيلة عبد القَيْسِ إلى المدينة ، قال النبى ﷺ للأشجِّ - رئيسها - : «**إنَّ فيك خَصْلتين يحبهما اللّه ورسوله : الحِلْم والأنَاة**» (٢) .

ورُوى أنَّ الرجل قال للنبى : خصلتان جبلنى اللّه عليهما ، أم جدَّتا فىّ ؟ فقال له «**بل جَبَلك اللّه عليهما**» فسُر الرجل على هذا العطاء الجزل .

لقد كانت نفسه - فى ظلمات الجاهلية - تتألق بخلال يحبُّها اللّه جلَّ شأنه .

ولقد طالعت النُّبَذ اليسيرة التى نقلها «ديل كارنيجى» عن حياة «إبراهام لنكولن» الزعيم الأمريكى الكبير ، فتبيَّنت فى تضاعيفها هذا السُموّ الذى يبرأ اللّه عليه بعض النفوس ، لتكون فى بيئتها نوراً يومض بالنُّبل والفضل ، ومع ذلك فإنَّ هذا الرجل لم ينجُ من تألُّب الصغار عليه ، بل إنَّ «كارنيجى» يقول : (لعل أحداً ممَّن أنجبتهم أمريكا فى تاريخها كله ، لم يلق من الإيذاء والمَقْت والخديعة ما لقيه «لنكولن») .

---

(١) البقرة : ٢٠٨ . (٢) البخارى .

وبرغم ذلك فإنه كما يقول - مؤلف سيرته - (لم يزنِ الناس قطُّ بميزان حبه أو كراهيته لهم .

فإذا أساء رجل إلى شخصه - وكان هذا الرجل أصلح الرجال لتقلُّد منصب من المناصب - أسرع «لنكولن» يقلِّده إياه كما لو كان يقلِّده صديقاً له .

ولا إخاله عزل رجلاً عن عمله لأنه كان خصماً له ، أو لأنه كان يكرهه .

بل الواقع أن «لنكولن» أوذى وأُسىء إليه من رجال قلّدهم فيما بعد مناصب ذات وجاهة وسطوة ، لأنه يرى - كما يقول كاتب سيرته «هندرون» -- أنه لا ينبغى لرجل أن يُمدَح أو يُذمَّ على عمل يؤدِّيه ، لأننا جميعاً مسخَّرون فى أيدى الظروف والأقدار والبيئة والتعليم ، والعادات المكتسبة ، والوراثات التى تطبع الناس بطابع لا ينفك عنهم أبداً .

ويحتمل أن يكون «لنكولن» مصيباً ، فلو أننا ورثنا الخصائص الجثمانية والذهنية والعاطفية التى ورثها أعداؤنا لكنّا على الأرجح قد أصبحنا على غرارهم ، وما اختلفنا عنهم .

وقد اعتاد «كلارنس وارد» أن يقول : بدلاً من أن نمقُتَ أعداءنا ينبغى أن نشفقَ عليهم ، وأن نحمد اللّه عزّ وجل على أنه لم يخلقنا مثلهم .

وبدلاً من أن نصب الاتهامات وألوان النقمة على رؤوس أعدائنا يحسن أن نلتمس لهم الرحمة والمعونة والعفو) .

هذه الكلمات التى نضجت بها قلوب كبيرة تذكرنا بموقف رجل من أئمة الفقه الإسلامى ، حاولت الحكومة فى عهده أن تحمله على اعتناق رأى دينى لها فأبى الرجل أن يعتنق هذا الخطأ ، ورأت الحكومة أن تستعين على إقناعه بالجلد والتنكيل والسجن الطويل ، ومع ذلك فقد صبر الرجل على بلائه ورفض أن يبيع عقيدته فى أهواء المبتدعين ، ورغبات الجبارين .

فلما يئسوا منه وظنُّوا أنَّ أجله قد اقترب لهول ما نزل به ردُّوه إلى بيته .

قال ابن كثير : وجاء الأطباء إلى الإمام المعذَّب ، فقطعوا لحماً ميتاً من جسده وجعلوا يداوونه حتى عاد إليه روحه الذى كاد يزهق ، فلما شفاه اللّه بقى مدة وإبهاماه يؤذيهما البرد .

أتدرى ما كان موقفه بعد ؟ .

جعل كلَّ من آذاه فى حل إلا أهل البدع ، وكان يتلو قوله عزَّ وجل :

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾(١)

يقول : ماذا ينفعك أن يُعذَّب أخوك المسلم بسببك ، وقد قال اللّه :

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾(٢)

وينادى المنادى يوم القيامة «ليَقُمْ من أَجره على اللّه ، فلا يقوم إلاَّ من عَفَا» .

ورُوى عن رسول اللّه ﷺ : «**إذا جَمَع اللّه الخلائق نادَى منادٍ : أين أهلُ الفضل؟ قال فيقوم ناس - وهم يسير - فينطلقون سراعاً إلى الجنة .**

فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون : وما فضلكم ؟ ، فيقولون : كنا إذا ظُلِمْنَا صَبَرْنا ، وإذا أُسىء إلينا حَمَلْنَا . فيقال لهم أُدْخُلوا الجنة فَنِعْم أجرُ العاملين» .

تلك خلال السماحة والتجاوز كما يثبتها التاريخ لإله الأكرمين فى المشارق والمغارب .

وما أقلَّهم على كثرة الناس .

(١) النور : ٢٢ (٢) الشورى : ٤٠ .

لا تنتظر الشُّكرَ من أحَد

مع أنَّ نعم اللّه تلاحقنا في كل نَفَس يملأ الصدر بالهواء ، وكل خَفْقة تدفع الدماء في العروق ؛ فنحن قلَّما نحسُّ ذلك الفضل الغامر ، أو نقدِّر صاحبه ذا الجلال والإكرام !! .

إننا نخال كل شيء مهيّأ من تلقاء نفسه لخدمتنا وأنَّ على عناصر الوجود تلبية إشارتنا وإجابة رغبتنا لا لعلة واضحة سوى أننا نريد ، وعلى الكون كله التنفيذ !! .

بالضبط كما يعيش الأطفال المدلَّلُون !! .

وقد نشعر ببعض الجميل لظروف مواتية ، أو ببعض الجمال في بيئة مريحة ممتعة ، وعلى ما في هذا الشعور من نقص - لانقطاعه عن اللّه وسوء إدراكنا لنعماه - فكم تظن من الناس يملكه هذا الشعور ؟ قلَّة لا تذكر !! .

أما جمهور البشر فذاهل عمَّا يكتنفه من آلاء و إنَّه يتقلَّب في خيرات اللّه غير واعٍ لكثرتها ، ولا شاكرٍ لمرسلها .

وقد أراد اللّه عزّ وجل أن ينبه الناس إلى ما خولهم من برِّه ، وإلى ما يحيط بهم من آثار قدرته ورحمته فقال - كأنه يعرِّف نفسه لخلقه - :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]

(١) غافر : ٦١ - ٦٤ .

فهل بعد هذا البيان والتنبيه أدَّينا حق اللّه ؟! .

يظهر أن شكر المنعم واجب ثقيل ، وأنّنا على قدر ما نحتاج ونأخذ ، على قدر ما نستخفُّ وننسى .

بل إنّ كثيراً من الناس يتناول أنعُم اللّه وكأنه يستردُّ حقّاً مسلوباً منه ، أو ملكاً خاصّاً به ، ومن ثَمَّ فهو لا يرى لأحدٍ فضلاً عليه .

وبهذا التفكير الكنود لا يثمر صنيع ولا يجيء شكر .

وتلك هى العلّة فى أنك قد تسلف أيادى بيضاء لبعض الناس وتبذل جهداً محموداً فى سوقها ، حتى إذا استقرَّت فى أيديهم نظروا إليك جامدين ، أو وَدَّعُوك بكلمات باردة ، ثم ولَّوْا عنك مدبرين !! .

هل يغضبك هذا المسلَكُ ؟ . هكذا صنعوا قبلاً مع ربِّك وربِّهم فقال :

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ (١) ﴾

ويضرب لنا «ديل كارنيجى» عدة أمثلة لشيوع الجحود بين الناس فيقول : (لو أنك أنقذتَ حياة رجل أتُراك تنتظر منه الشكر ؟ . قد تفعل . بَيْد أنّ «صمويل لايبيتز» - الذى اشتغل محامياً ثم قاضياً - أنقذ ثمانية وسبعين رجلاً من الإعدام بالكرسى الكهربائى ، فكم من هؤلاء تقدَّم له بالشكر ؟ . لا أحد !!) .

ولقد شفى المسيح عليه السلام عشرة من المفلوجين فى يوم واحد ، فكم من أولئك المعافين سعى إلى رسول الله ليشكره ؟ . واحد فقط !! .

أما الآخرون فقد انصرفوا دون أن ينبسوا بكلمة .

ويستطرد «كارنيجى» قائلا : (وحدَّثنى «تشارلس شواب» أنه أنقذ مرة صرّافاً خسر فى مضاربات «البورصة» أموالاً تخص «البنك» ، فدفع له المال المفقود كله ، وبذلك نجَّاه من السجن ، ومن فقد شرفه وعمله ، فهل شكره الصراف ؟ . نعم شكره يومئذ بكلمة ، ثم ما لبث أن راح يحمل عليه ويكيل له السباب ألواناً !!) .

ثم يقول «كارنيجى» وكأنه يشرح قول اللّه سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ (٢) ﴾

(١) سبأ : ١٣ . (٢) العاديات : ٦ .

(إنَّ الجحود فطرة ، إنه ينبت على وجه الأرض كالأعشاب الفطرية - التى تخرج دون أن يزرعها أحد - أما الشكر فهو كالزهرة التى لا يُنْبتها إلا الرىُّ وحسن التعهدُ . . .) .

ويقول : (إن الطبيعة الإنسانية ما برحت هى الطبيعة الإنسانية والأرجح أنها لن تتغير أبد الآبدين !!) .

وإذن فلنقبلها على علاّتها .

لماذا نتحسَّر على ضياع المنن وتفشِّى الجحود ؟ إنه لأمر طبيعى أن ينسَى الناس واجب الشكر ، فإذا نحن انتظرنا منهم أداء هذا الواجب فنحن خُلقَاء بأن نجرَّ على أنفسنا متاعب هى فى غِنىً عنها .

وهذا كلام يحتاج إلى تعقيب وإيضاح ، فإنَّ إقفار النفوس من نضارة الشكر ، وانتشار الجفاف أو الأشواك بها فحسب منكر قبيح ، وينبغى أن نَزَع الناس عنه ، وأن نعلِّمهم الحفاوة بما يُسْدَى إليهم من معروف ، وتقدير ما فيه من برٍّ ومرحمة وإحسان .

والإسلام يوجّه المُعطَى إلى ذكر النعمة التى سيقت له ، وإلى الثناء على مُرْسِلها وإلى مكافأته عليها بأيّة وسيلة . فإن لم يجد الجزاء المادىَّ المعادل لما نال فلْيشكرْ بلسان الحال والمقال ، ولْيَدْعُ اللّه أن يثيب من عنده الثواب الذى يُشبع عواطف الشكر فى أفئدتنا ، ويحقق ما قصرَّت عنه أيدينا .

قال رسول اللّه ﷺ : «**من اصطنع إليكم معروفاً فجازوه ، فإن عجزتم عن مجازاته فادعوا له ، حتى تعلموا أنكم قد شكرتم ، فإنَّ اللّه شاكر يحب الشاكرين**» (١) .

وقال رسول اللّه ﷺ : «**من أُعْطِى عَطَاءً فوجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ ، فإن لم يجدْ فَلْيُثْنِ . فإنَّ من أثنى فقد شكر ، ومن كتَم فقد كفر**» (٢) .

وقال : «**إنَّ أشكر الناس للّه تبارك وتعالى ، أشكرَهم للناس**» . وفى رواية : «**لايشكر اللّه من لم يشكر الناس**» (٣) .

وقال : « **من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر اللّه ، والتحدُّث بنعمة اللّه شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة . والفُرْقَةُ عذاب**»(٤) .

---

(١) الطبرانى .
(٢) الترمذى .
(٣) أحمد
(٤) عبد اللّه بن أحمد .

وذكر ما فى الجماعة من رحمة موصول بما قبله ، فإنَّ التقاطع يرجع غالباً إلى كنود النعم وجحد الإحسان ، ولا يشُدُّ أواصر الجماعات كحفظ المعروف وإكرام أهله ، ولا يفصم عُرى الائتلاف ويعرِّض لعذاب الفرقة إلا غمط الحقوق وإهمال ذويها والتنكر لما أسدَوْه من جميل .

إلاَّ أن الإسلام مع توكيده لواجب الشكر وتحقيره لشأن الجاحدين يطلب من أولى الخير أن يجعلوا عملهم خالصاً لوجه اللّه وأن يُبعدوا عن مقاصدهم كل دَخَل ، فإنَّ غشَّ النية يفسد العمل ويحبط الأجر ، والمعروف الذى يُقْبل ويُحْتَرَم هو الذى يبذله صاحبه بدوافع الخير المحض لا يطلب عليه ثناءَ بشر ولا شكره ، إنما يطيع به أمر اللّه ويطلب رضوانه ومغفرته .

والإسلام بما يفرضه على العمل من إخلاص يريد أن يحرِّر القلوب من قيود الأغراض وأن يعلِّقها بالكمال المطلق ، فهى تفعل الخير عن بواعث نقية ، أى عن حبٍّ مكين له ورغبة قوية فى تحقيقه دون نظر إلى مدايح الناس أو تطلُّع إلى منزلةٍ ما بينهم .

وهذا السموُّ المنزَّه هو دعامة الإحسان الحق ، وهو المثل الأعلى لكل خلق كريم ، رُوى أن رجلاً تطاول على عبد اللّه بن عباس ، فقال له : «أتشتمنى وفىَّ ثلاث :

إنِّى لأسمع بالحاكم من حكّام المسلمين يعدل فأحبُّه ولعلِّى لا أُقاضى إليه أبداً !! .

وأسمع بالغيث يصيب البلد من بلاد المسلمين فأفرح به وليس لى به سائبة ولا راعية !! .

وآتى على الآية من كتاب اللّه فأوَدُّ لو أنَّ المسلمين كلَّهم يعلمون منها مثل ما أعلم» .

ما هذا ؟ . . هذا رجل يحب شيوع الحق والخير والعلم ، ويفرح من أعماق قلبه لو استمتع الناس بما فيها من بركات ، ولو لم يمسَّه من ذلك حظ كبير أو صغير .

إن هذا التعلُّق بالكمال المطلق والإحسان المبرَّأ أهمُّ ما يطلبه الإسلام منك ، حين تُسدى إلى أحدٍ معروفاً قدِّم جميلك عشقاً لصنائع المعروف وابتغاء ما لدى اللّه من مثوبة .

ولا تعوِّل على حَمْد أحد أو تقديره ، كُنْ كما وصف اللّه الأبرار من عباده :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾(١)

وليس المقصود أنَّهم يقولون ذلك بألسنتهم ، فذاك مستبعد لأنه قد يُؤذى أصحاب الحاجات ، وإنما ذلك ترجمة لما فى قلوبهم من نيَّات صافية ، ومشاعر نظيفة .

هل ابتغاء وجه اللّه عسير على الناس ؟ .

المؤسف أنَّ أغلب البشر تهيجهم للعمل بواعث مشوبة ، ويطلبون به غايات شتى ، وقليل جداً أولئك الذين يتحَّركون بدافع نقىّ ، ويرتفعون بمقاصدهم عن مآرب هذه الأرض انظر إلى قول الشاعر :

لـمَّـا رأيتُ نسـاءنا ... يَفْحَصْن بالمعزاء شَدَّا

وبدتْ «لَميسُ» كأنها ... بَدْرُ السماء إذا تبدَّى

وبدتْ محاسنُها التى ... تُخفى وكان الأمرُ جِدَّا

نازلتُ كبشَهم ولم ... أرَ مِنْ نِزال الكَبْش بُدَّا

لِمَنْ هذا الإقدام ؟ لوجه «لميس» الحسناء !! .

وما سرُّ هذه الشجاعة ؟ نَيْلُ إعجابها ، وطلب المنزلة عندها وعند مثيلاتها . .

وهذه طبيعة ألوف من الناس !! .

ويذكر شاعر آخر أنه صنع معروفاً أنقذ به من الهلاك أحد الرجال الذين لا يحبُّهم ، وأنَّه كان يستطيع تركه وحده ليلقى حتفه ، لولا أنه خشى أحاديث الناس عنه فى مجالسهم .

ذكرتُ تعلَّة الفتيان يوماً ... وإسناد الملامة للمُليم

والبعد عن الدَنيَّة اتقاء ذمِّ الناس ليس خيراً محضاً ، وتتكشف حقيقة هذا الخير المغشوش عند أمن الناس ، ماذا يصنع هذا الإنسان عندما يخلو بنفسه ، ويوقن أنَّ الناس لن يطلعوا على ما يفعل أو يترك ؟ .

---

(١) الإنسان : ٨ - ٩ .

إنَّ عشَّاق الثناء وطلاَّب الظُّهور لا يبالون عندئذ أن يرتكبوا العظائم . .

فلا جَرَم أن يشتدَّ الإسلام فى تمحيص القلوب ، وإخلاص السرائر ، واشتراط وجه اللّه فى كل شأن يقوم الناس به ، وتجريد الأعمال من كل ملابسة تخدش النيَّة ، وفى الحديث «إنَّ اللّه تبارك وتعالى يقول : **(أنا خَيرُ شريك ، فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكى) يا أيُّها الناس أخلِصوا أعمالكم ، فإنَّ اللّه تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلاّ ما خَلُصَ له .**

ولا تَقُولوا هذه للّه وللرحِم ، فإنَّها للرحم وليس للّه منها شىء .

ولا تَقُولُوا هذه للّه ولوجوهكم ، فإنهَّا لوجوهكم ، وليس للّه منها شىء» [1] .

وهذا صحيح ؛ فأنت إذا قلت :(أفعل هذا للّه ومن أجل خاطر فلان) ، فالأغلب أنه من أجل هذا الخاطر العزيز ، وأن اللَّه ليس له جوار هذا الخاطر نصيب ، ولو كان له نصيب ما فإنه يرده لأَنه جل شأنُهُ لا يقبل العمل إلاَّ خالصاً له وحده .

ومن ثَمَّ يجب علينا أن نتوجَّه بحركات قلوبنا وأيدينا للّه ربِّ العالمين ، لا ننتظر ثناءً ولا إعجاباً ، ولا بروزاً ولا ظهوراً ولا شكوراً . .

وإنَّنى بعد ما بلوتُ الناس أجدنى مضطراً لأن أقول : محِّضْ عملك للّه وأنشُدْ ثوابَه وحده ، ولا تنتظر أن يشكرك أحد من الناس ، بل توقَّع أن يضيق الناس بك !! وأن يحقدوا عليك !! وأن يبتغوا لك الريبة وينسوا الفضل !! وأن يكونوا ، كما قال الشاعر :

إنْ يسمعوا ريبةً طاروا بها فَرَحاً ... عنى وما سمعوا من صالح دفنوا
جهلاً علينا ، وجبناً عن عدوِّهْمُ ... لبئستِ الخلّتان : الجهلُ ، والجبنُ

وإنه ليخيل إلىَّ أنَّ العداوة أزليّة بين الأمجاد والأوغاد .

بين أصحاب المواهب والمحرومين منها .

بين فاعلى الخير والعاطلين عنه .

(١) البيهقى .

وأخيراً بين من نحسن إليهم ، وبين من يستكثرون علينا أن نكون فى مكانٍ يجيئهم منه إحساننا ، ويدرُّ عليهم خيرنا . .

والجريمة التى ارتكبناها والتى جعلت قلوب هؤلاء تنحرف عنَّا أنَّنا أسعفناهم يوم احتاجوا ، وأنَنا لمَّا قدرنا على ذلك لم نبخل به .

وكما كانت جريمة ابن آدم الصالح أن اللّه قبل عمله ولم يقبل عمل أخيه ، كذلك كانت جريمة أبى بكر أنه أنفق على قريبه «مِسْطَح» فكان جزاؤه أنَّ «مِسْطَحاً» ما إن سمع الإشاعات الكاذبة تدور حول «عائشة» حتى أسرع يعين على ولىٍّ نعمته ويروِّج مع الأفاكين قالة السوء ، بدل أن يردّ جميل قريبه بالدفاع عن عرضه !! .

❀❀❀❀

إنّ فى طباع نفر من الناس كُنوداً يَعزُّ على الدواء ، ولستُ أدرى أأكثرُ الناس معلولون بهذا الداء ، أم تلك قلّة عكّرت صفو الحياة ، كما يعكر عذوبةَ الماء القليلُ من الملح .

أيّاً ما كان الأمر فإنَّ الشكَاة من هذا البلاء قديمة جديدة .

كان مالك بن أنس يشكو على عهده قلة الإنصاف ، وهو عهد التابعين .

وفى هذا الطُّغرائى بعد مئات السنين يقول :

غاض الوفاء ، وفاض الغدر ، واتَّسعت مسافة الخُلْف بين القول والعمل

وإنَّنى لأتلفَّت يمنةً ويسرةً وأتفرّس فى الجزاء الذى لقيته من الناس ، فأحسُّ غصَّة .

وأريد فى إيجاز أن أكشف بعض الجوانب التى يجب إعلانها فيما أصدرُ للناس من كتب ، حتى يبدو أمرى على حقيقته .

من ثمانى عشرة سنة وأنا أكتب للإسلام وأخطب ، والجماعة التى عشتُ فيها حقبة من الدهر تعلم ذلك عنى . ولم تكن خطابتى بَسْطة لسان يهدر بالقول ، ولم تكن كتابتى سَطْوة قلم يصول ويجول ، بل كان ذلك كلُّه ذَوْبَ عاطفة تضطرم بالإخلاص ، وفكر يستكشف صميم الحقِّ ويبادر إلى إعلانه .

وقد انفردت بأسلوب فى شرح تعاليم الإسلام ، ومهاجمة الفساد الاقتصادى والاجتماعى والسياسى - باسمه - لم يشركنى فيه أحدٌ أمداً طويلاً .

ثم نشبت فتن عمياء انتهت بفصلى من الجماعة ، وهو فصل أراه أنا نتيجة ضغائن شخصية ، ويراه غيرى تصرُّفاً منطقياً لا شيء فيه ، ليكن ، إنَّ المرء قد يَندُّ عن الصواب فى تصوُّره لشئونه الخاصة من يدرى ؟ . ربما كان خصومى معذورين فى الإساءة إلىَّ ، أعنى فى التخلُّص منِّى ؛ فَلأرضَ بهذا الذى حدث ، ولأغمضِ الطِّرف عما أتوهَمه فيه من غدر وجَوْر .

بَيْدَ أنَّ هناك محاولة للنَّيل منى ، بل للقضاء علىَّ يجب أن أرُدَّها بقوة ، وأن أفضح ما يكتنفها من دناءة . وهى محاولة الإغارة على تراثى الأدبى ، ووضع اليد الظالمة عليه فى صَفاقة لا أعرف لها مثيلاً فى تاريخ الآداب والدعوات .

لِيَكْرهنى من شاء . أمَّا أن تُخْتطف كتاباتى ويوضع عليها اسمٌ غير اسمى ، ثم يتواصَى الحاقدون بالإرجاف علىَّ وإظهارى للملأ كأنى أنا الناقل عن غيرى ؛ فهذه هى الجريمة التى تُطلق عَقيرتى بالصياح ، ولا أقبل فيها هدنة !! .

عجباً لا ينتهى من عجب وفتوناً ليس يبلى من فنون !!

لكن لماذا مضت بى سَورة الغضب على هذا النحو ؟ إنَّ هذا الموضوع ينبغى أن يُطوى وأن يُنْسى .

وقلت لنفسى : ألا تتعلَّمين الإخلاص للّه من مسلك الإمام الشافعى الذى ملأ طباق الأرض علماً ثم قال : وددتُ لو نُشِر هذا العلم دون أن يُعرف صاحبه ؟ .

فلأفترضْ أنَّ سحب النسيانْ غطت علىّ فلم يعرف أحد من الخلق أنى سبقت إلى كذا ، أو بَرزْتُ فى كذا ، إنَّ ذلك لا يضير أمرأً يقصد وجه اللّه فيما يكتب ، بل ربما كان ذلك أعونَ على تصحيح نيته وتنقية وجهته .

وقالت لى نفسى : لكنَّ هؤلاء بعد أن تعاونوا على طردك من مكانك ، وأرادوا إظهارك فى ثوب الساطى على غيرك ، فكيف يسمعون خطبك ويقرأون كتبك ثم ينتحلونها لأنفسهم ، ويجعلونك فى أعين الناس الناقل المقلّد ؟! .

وقلت لنفسى : ما تزالين تتعلَّقين بالخَلْق ، وتذهلين عن الخالق .

وأخيراً . . قرَّرتُ أن أطوِىَ هذه الصفحة ، سائلاً ربِّى أن يغفر لى ، ولمن جار علىَّ ، أو استهان بى .

هلْ تستبدل مليون جنيه بما تملك ؟

ما أكثر النِّعم التى بين أيدينا وإن غفلنا عنها !! .

أقليل أن يخرج الإنسان من بيته وهو يهزُّ يديه كلتيهما ، ويمشى على الأرض بخطوات ثابتة ، ويملأ صدره بالهواء فى أنفاس رتيبة عميقة ، ويمدّ بصره إلى آفاق الكون ، فتنفتح عيناه على الأشعة المناسبة ، وتلتقط أذناه ما يموج به العالم من حَرَاك الحياة والأحياء ؟ .

إنَّ هذه العافية التى تمرح فى سَعَتها وتستمتع بحريتها ليست شيئاً قليلاَ .

وإذا كنتَ فى ذهول عمَّا أوتيت من صحة فى بدنك ، وسلامة فى أعضائك ، واكتمال فى حواسك ، فاصْحَ على عجل . . وذق طعم الحياة الموفورة التى أتيحت لك ، واحمد اللّه - ولى أمرك وولى نعمتك - على هذا الخير الكثير الذى حَبَاك إياه . .

ألا تعلم أنَّ هناك خَلْقاً ابتُلوا بفقد هذه النِّعم ، وليس يعلم إلاَّ اللّه مدى ما يحسُّونه من ألم ؟ . .

منهم من حُبس فى جلده ، فما يستطيع حركة بعد أن قيَّده المرض ومنهم من يستجدى الهواء الواسع نفسا يحيى به صدره العليل ، فما يعطيه الهواء إلاّ زفرة وتخرج شاخبة بالدم !! .

ومنهم من عاش منقوص الأطراف أو المشاعر !! .

ومنهم من يتلوّى من أكل لقمة لأن أجهزته الهاضمة معطوبة . ومنهم ، ومنهم . .

إذا كنت معافَى من هذه الأسقام كلِّها فهل تظن القدر زوَّدك بثروة تافهة ؟

أو منحك ما لا تحاسب عليه ؟ كلا ، كلا .

إنَّ اللّه يكلفك بقدر ما يعطيك .

ومن الخطأ أن تحسب رأس مالك هو ما اجتمع لديك من ذهب وفضة !! . إنَّ رأس مالك الأصيل جملة المواهب التى سلّحك القَدَر بها ، من ذكاء ، وقدرة ، وحرية ، وفى طليعة المواهب التى تحصى عليك وتعتبر من العناصر الأصيلة فى ثروتك ما أنعم

الله به عليك من صحة سابغة ، وعافية تتألق بين رأسك وقدمك ، وتتأنَّق بها فى الحياة كيف تشاء .

والغريب أنَّ أكثر الناس يزدرون هذه الثروة التى يمتلكونها ، لا يشركهم أحد فيها ، أو يزاحمهم عليها !! .

وهذا الازدراء جُحود يستحق التنديد والمؤاخذة ، قال «ديل كارنيجى» : (أَتُرَاكَ تبِيعُ عينيك فى مقابل مليون دولار ؟ . كم من الثمن تظنه يكفيك فى مقابل ساقيك أو سمعك ، أو أولادك ؟ أو أسرتك ؟ .

احسب ثروتك من هذه المواهب الغالية ، ثم اجمع أجزاءها وسوف ترى أنها تقدر بالذهب الذى جمعه آل «روكفلر» وآل «فورد» بيد أن البشر لا يقدرون هذا كله ! إننا كما قال فينا «شوبنهور» : ما أقَلَّ تفكيرنا فيما لدينا وما أكثر تفكيرنا فيما ينقصنا) .

ويُروى أنَّ «الرشيد» قال لابن السمَّاك : عظْنى - وقد أُتىَ بماء ليشربه - فقال : «ياأمير المؤمنين ، لو حُبست عنك هذه الشَّرْبة أكنت تفديها بملكك؟

قال : نعم ؟ قال : فلو حبس عنك خروجُها . أكنت تفديها بملكك؟ . قال : نعم .

قال : فما خَيْرٌ فى مُلْكٍ لا يساوى شربة ولا بَوْلة ؟!» .

وإذا كان هذا الواعظ يريد أن يهوِّن ملك الخليفة فيجسَّم أمام عينيه نعمة مبذولة ، ويريه أنها أرجح مما يعتز به من دَوْلة وصَوْلة ، فنحن ننظر إلى هذه العظَة من وجهها الآخر ، لنرى جميعاً أنا وأنت أنَّ ما يفتديه الملوك بتيجانهم نحصل علَيه دون انتباه ، ونناله من غير جهد !! .

فهل نذكر هذا الفضل ؟ وهل نقدِّر هذه النعمة ؟ وهل نشكر عليها ؟ .

أغلبنا يألف ما يجده من صحة ، فلا يعرف روعته وجلاله إلاَّ إذا تعكر عليه أو فقده . . وطول الإلف قد يتأدَّى بنا إلى الاستهانة ، لكن اللّه لا يُلغى حقيقةً ما لأن عباده يغضُّون منها ، إنَّه يحاسبهم بها على مقدارها كله .

قال رسول اللّه ﷺ : « **والذى نفسى بيده ، إنَّ الرجل ليجىء يوم القيامة بعمل صالح لو وضع على جبل لأثقله ، فتقوم النعمةُ من نعم اللّه ، فتكاد تستنفد ذلك كله ، لَولا ما يتفضَّل اللّه من رحمته**» (١) .

---

(١) المنذرى .

ومعنى ذلك أن أصحاب النعم مطالبون بمزيد من الجهد والنشاط كَفَاءَ ما أوتوا من خير ، ومُنِحُوا من برّ .

✾✾✾✾

والإسلام يرى الحياة نعمة ، ويطلب إلينا أن نشكر اللّه على ما وهبنا من روح وإحساس ، وسخَّر لنا من ليل ونهار ، ومكَّن لنا بين الأرض والسماء . إنَّ هذه الحياة الممتازة الراقية تكريم خاص ينبغى أن نعتزَّ به وأن نبصر حق اللّه فيه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(١)

واللّه قد منحنا الحواسَّ المعروفة لنتجاوب مع الوجود ، ونتعرف ما فيه ، ونتذوّق بملكاتنا المادّية والأدبيَّة جماله وقواه ، حتى إذا غمرنا هذا البهاء المُفاض من كل ناحية اهتزت مشاعرنا شكراً للذى أحيانا وكرّمنا :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢)

إنَّ المرء قد يغفل عن النطاق الواسع الذى يجتنى منه ما بين يديه من خيرات ، ولو دقَّق النظر لرأى المائدة التى أمامه تحفل بألوان شتى من أقطار العالم ، ربما كان يأكل قمحاً من روسيا ، ولحماً من إفريقيا ، وفاكهة من أوروبا ، ويشرب شاياً من آسيا ، ويتناول بعض المواد الأخرى من أمريكا .

ولو رجع مرة أخرى لرأى الأرض والسماء كلتيهما قد اجتمعتا على خدمته ، وتيسير حياته ، فيفهم قول اللّه عزّ وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾(٣)

(١) البقرة : ٢٨ . (٢) النحل : ٧٨ . (٣) البقرة : ٢١ - ٢٢ .

والحقُّ أنَّ مافى الحياة من منغِّصات ومتاعب يجىء من فوضى الناس ونَزَق غرائزهم وطيش مسالكهم أكثر مما يجىء من طبيعة الحياة نفسها !! .

هَبْ رجلاً ترك لأولاده الثلاثة داراً تسع ثلاثمائة لوفرة مرافقها ورحابة باحاتها ، فاختصم الأولاد فى هذه الدار ، وطرد بعضهم بعضاً ، أو سجن بعضهم بعضاً ، هل يكون ذلك عيباً فى الدار ، أو تقصيراً من ربِّهما ؟ .

أم هو عيب الإخوة المتشاركين والشركاء المتظالمين ؟ .

كذلك الحياة الدنيا ، واللّه ما أفسدها ، وكسف ضياءها ، وشاب نعماءها ، إلاّ ركض البشر فى جوانبها ركضاً مجنوناً ، لا يخضع لشرائع اللّه ، ولا يستقيم مع نصحه وهداه .

لَعَمْرُك ما ضاقت بلادٌ بأهلِها ولكنَّ أخلاقَ الرجال تضيق

ولو استرشدنا بمنارات اللّه التى أنزل علينا ، وأدركنا الخير الواسع الذى أتاح لنا ؛ لكان لنا وللحياة شأن آخر .

غير أن أكثرنا يحتقر ثروة الحياة والعافية التى يملكها ، ويعجز تبعاً لذلك عن الانتفاع بها ، ثم يبكى أمانىَّ هينة لم يحصل عليها ، ولو حصل عليها لكانت بعض الواقع الثمين الذى يقدِّره حق قدره !! .

حكى «ديل كارنيجى» قصة رجل أرهقه الكدح الفاشل ، واضطربت نفسه تحت وطأة الأزمات التى عاناها ؛ إلاّ أنَّه وعَى من صُوَر الحياة درساً أخذ بيده إلى النهاية المشرقة ، ولنسمع إليه يقول : (. . . كنت خلال العامين السابقين لهذا الحادث أُديرُ محلاً للبقالة فى مدينة «وب» ، وقد باءت تجارتى بالكساد ، وفقدت فيها كل ما ادخرته من مال ، بل عمدت فوق ذلك إلى الاستدانة ، حتى لقد استغرق سداد ديونى سبع سنين ، وكنت أغلقت محل البقالة قبل ذلك الحادث بأسبوع ، وفى يوم الحادث اتجهت إلى أحد المصارف لأقترض شيئاً من المال يعيننى على الذهاب إلى مدينة «كانساس» للبحث عن عمل فيها .

وبينما أنا أسير فى الطريق ذاهلاً شارد اللب ، قد خامرنى اليأس وأوشك الإيمان يفارقنى ، إذ رأيت رجلا مبتور الساقَين يريد أن يعبر الطريق . . كان يجلس على عارضة خشبية مزوَّدة بعجلات صغيرة ، ويستعين على تسيير هذه العارضة بيدَيه اللَّتَين أمسك بكلتيهما قطعتين من الخشب يستند بهما إلى أرض الشارع «ليدفع

عربته» هذه إلى الأمام . . وقد التقيت به بعد أن عبر الشارع ثم بعد أن أخذ يحاول رفع خشبته التى يجلس عليها ليعتلى « الطوار» فلما أصبح فوقه أدار «عربته» الصغيرة ليمضىَ فى سبيله ، فالتقت عيناه بعينى وابتسم ابتسامة عريضة مشرقة . ثم قال : سعدت صباحاً يا سيدى ، إنه يوم جميل ، أليس كذلك ؟ .

ووقفتُ مكانى أتطلَّع إلى هذا الرجل ، وأدركتُ كم أنا واسع الغنى .

إنّ لى ساقين ، وأستطيع أن أمشى !! .

وخجلتُ مما كنت أستشعره من الرثاء لنفسى ، وقلتُ : إذا كان هذا الرجل يستطيع أن يكون سعيدا مَرِحاً مع فَقْدِ ساقيه ، فأولى بى أن أستجمع هذه الصفات ولى ساقان ، وكنتُ قد عوَّلت على أن أقترض من المصرف مائة دولار ، ولكنى إذ ذاك واتتنى الشجاعة فطلبتُ مائتين ، وكنت قد عوَّلت على أن أقول للمصرف : إنى ذاهب إلى «كانساس» لأحاول الحصول على عمل ، لكنى بعد هذا قلت للمصرف : إنى ذاهب للحصول على عمل ، ولقد حصلت على القرض وحصلتُ على العمل) .

ما أغْلى العافية التى تسرى فى أوصالنا .

وما أثمن القُوى التى زوَّدنا اللَّهُ بها .

وما أشهى الثِّمار التى نَقطِفُها لو أحسنَّا استغلالها ولم نُهدِرْ قيمتها .

إنَّ الإسلام يريد أن يلفِت أنظارنا بقوة إلى نَفَاسةِ النِّعَم التى تكتنفُنا ، وإلى ضرورة الإفادة منها . وإليك هذه القصة التى أراد بها النبى ﷺ تَنْبيهنا إلى جلال النعم التى يستمتع أغلبنا بها ولا يلتفت إليها :

عن جابر رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال : «**خرج من عندى خليلى جبريل آنفاً فقال : يا محمد . . والذى بعثك بالحق إنَّ للّه عبداً من عباده ، عَبَدَ اللَّهَ خمسمائة سنة على رأس جبل فى البحر ، عرضه وطوله ثلاثون ذراعاً**

فى ثلاثين ذراعاً ، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية . وأخرج له عيناً عذبة بعرض الإصبع تفيض بماء عذب ، فيستنقع فى أسفل الجبل ، وشجرة رُمَّانٍ تخرج له فى كل ليلة رمانة . . يتعبد يومه ، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ، ثم قام لصلاته . . فسأل ربَّه عند وقت الأجل أن يقْبِضَهُ ساجداً ، وأن لا يجعل للأرض ولا لشىء - من الهوامِّ عليه سبيلاً حتى يبعثه اللّه وهو ساجد . . قال ففعل . فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عَرجْنا ، فنجد له فى العلم أنه يبعث يوم القيامة ، فيوقف بين يدى اللّه فيقول له الرب : أدخلوا عبدى الجنة برحمتى ، فيقول : ربِّ بل بعملى ، فيقول : أدخلوا عبدى الجنة برحمتى : فيقول : ربِّ بل بعملى ، فيقول اللّه : قايسوا عبدى بنعمتى عليه وبعمله ، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة ، وبقيت نعم الجسد ، فضلاً عليه ، فيقول : أدخلوا عبدى النار !! فيجرُّ إلى النار . . فينادى : ربِّ برحمتك أدخلنى الجنة ، فيقول : رُدُّوه ، فيوقف بين يديه فيقول : ياعبدى من خلقك ولم تَك شيئاً فيقول : أنت يا ربّ ، فيقول : من قوَّاك لعبادة خمسمائة سنة؟ فيقول : أنت يا ربّ ، فيقول من أنزلك فى جبل وسط اللُّجة ، وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح ، وأخرج لك كل ليلة رمانة ، وإنما تخرج مرة فى السنة ، ومن سألته أن يقبضك ساجداً ففعل؟ فيقول : أنت يا رب . قال فذلك برحمتى ، وبرحمتى أُدْخلُكَ الجنة ، أَدْخِلُوا عبدى الجنة ، فنِعْمَ العبدُ كنت يا عبدى ، فأدخله اللّه الجنة ، قال جبريل : إنما الأشياء برحمة اللّه يامحمد »[1] .

❀❀❀❀

فى هذا الحديث تنويه بقيمة النِّعم التى يحظى أغلب الناس بها ، وليس فيها أى انتقاص لعنصر العدالة ، أو خَدْشٍ لموازين الجزاء فى الدار الآخرة .

وبعض الحمقى يَمطُّون كلمة : «**إنما الأشياء برحمة اللّه**» ليجعلوا الحساب فوضَى ، وليوهموا أن العمل لا يرشِّح لجنة أو نار .

(١) المنذرى .

إنَّما هى الرحمة العليا يظفر به فريق - ولو كان عاصياً - فيدخل الجنة ويُحرم منها آخر - ولو كان مطيعاً - فيدخل النار .

وقد شاعت هذه السخافات بين الأجيال المتأخرة من المسلمين ، فضلَّلت فكرهم ، وأوهنت سعيَهم ، ولم تزدهم عن اللّه إلاّ بعداً وبدينه إلاَّ جهلا .

كيف يدخل الجنة من لم يرشحه لها جهده ، واللّه يقول :

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١)

ويقول :

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾(٢)

ويقول :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٣)

إنَّ معصية اللّه لا تُنيل رحمته ورضاه ، والعمل الصالح هو الذى يقرِّب من عطفه ومغفرته .

وفى مقدمة الصالحات أن تدرك ضخامة النعم التى أُسبغت عليك ، وأن تُغالى بحقيقتها وحقِّها ، فإنَّ اللَّهَ لو ناقشك الحساب عليها وتقاضَاكَ الوفاءَ بثمنها لعجزتَ .

(١) مريم : ٦٣ . (٢) الأنعام : ١٢٧ . (٣) الزخرف : ٧٢ .

أَنت نسيج وحدك

كنتُ مُعْجباً به ، تسحرنى كلماته ، وتزدهينى توجيهاته .

وكان يسرّنى أن أنجح مثله فى حسن البيان ، وقوة التأثر .

ولكنَّنى لم أحاول التشبُّه به أو متابعته على طريقته ، وأحسبنى لو حاولت لفشلت ، لأن طبيعتى تغلبنى .

إننى أسيرُ وفق خصائصى النفسية كما يسير القطار على قضبانه ، عندما أخرج عنها أتوقَّف لفورى .

وقد عرفتُ جَما من أصحابى يقلِّدون الرجل فيما دقَّ أو جلَّ من شأنه كلِّه ، ويحبون فى التقرب إليه أن يكونوا صُوَراً متشابهة من أعماله وأحواله .

ولَّما كان أستاذنا قد اشتغل قرابة عشرين سنة مدرّساً فى المرحلة الأولى من التعليم ، فقد جرت على لسانه كلمة «صحّ» التى طالما قالها لتلامذته فى فصول المدرسة ، كذلك شاع فى تصرفه الرَّبت على الكتفين ، مظهر العطف والحنوِّ اللذين يبديهما نحو أطفال المرحلة الأولى ، والغريب أن مقلِّديه من طلاّب الزعامة تابعوه فى هذه الكلمات والحركات ، كما تابعوه فى حفظ خطبه ومقالاته .

وقد تشاءمتُ من هذا الذَّوَبان السَّمج وتوقعْتُ السوء منه على الرجل وعلى مقلِّديه جميعاً ، لأن الصدق والإخلاص والإنتاج والمناصحة والحقيقة نفسها تضيع فى هذا الجو المفتعل من التمثيل الردىء أو المتقن .

لماذا لا ينمو الرجال على فطرتهم التى خلقهم اللّه بها كما تنمو أنواع النبات فى مغارسها ، لا النخيل تتحول أعناباً ، ولا الثمار تحاكى غيرها فى طَعْم أو لون .

إنَّ أيسر شىء على الشخص المقلِّد أن يلغى شخصيته أمام من يَفْنَى فيهم .

فإذا أبدَوْا رأياً أيَّده ، وإذا طلبوا مشورة تحرَّى الإدلاء بأقرب الأمور إلى هواهم . . !!

وقد قلتُ يوما لبعض هؤلاء المقلِّدين : ما هكذا كان يعامِل أصحاب محمدٍ محمداً وهو المثل الأعلى للخليقة !! .

فعندما استشار أصحابه فى أسرى «بدر» انطلق كلٌّ على سجيته يبدى ما عنده ، كما يعتقده .

«فأبو بكر» الحليم يؤثر الصفح ، و «عمر» الصارم يرى العقوبة .

وقد عقّب رسول اللّه ﷺ على مشورة صاحبيه بأن شبّه هذا «بإبراهيم» الذى قال لقومه :

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١)

وشبّه ذاك «بنوح» الذى قال :

﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(٢)

وظاهر أنَّ كلا الصاحبين تحرَّى الحق كما يهديه إليه تفكيره المستقل ، ومزاجه الخاص فى علاج الأمور .

وهذا المسلك الحرُّ المنزَّه عن المَلَق والميوعة هو الإسلام : ﴿**فطرةَ اللّه التى فطر الناس عليها**﴾ .

وبهذا الضَّرب من الشمائل النظيفة والسجايا الأبيَّة النقيَّة التفَّ حول رسول اللّه أناس لا يَرى أحدُهم مانعا البتَّة من أن يطلب إليه تغيير منزله فى ميدان القتال لأن الأفضل كذا ، ويرى رسول اللّه ﷺ الصواب فى مشورة صاحبه فيأخذ بها .

ألاَ ليتَ الزعماء والرؤساء عندنا يعرفون هذه الحقيقة .

إنهم يؤثرون من يذيب نفسه فيهم - على ضَعْف الكفاية أو انعدامها - ويؤخِّرون أصحاب الطبائع الحرَّة ، وإن وثبت بهم الرسالات والأعمال إلى الأمام .

وهذه هى الطامَّة !! وبلغنى أن الزعيم الروسى «ستالين» (٣) فصل أحد كبار الموظفين من منصبه ، لماذا ؟ لأن «ستالين» ما استشار هذا الموظف فى أمر إلاَّ أشار عليه بما يظنه أقرب إلى مرضاته .

ومثل هذا الموظف لا يُرجى منه نفع ، ولا يؤمن على مصلحة .

وقد تخلص منه الزعيم الروسى ، ولو كان فى ربوع الشرق لبقى موضع الرعاية إلى الممات .

---

(١) إبراهيم : ٣٦ .

(٢) نوح : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) لا ندرى بُعد الذى كُتِبَ فى الرجل ، أهذه القصة وقعت ، أم افتعلت له .

والمحاكاة ، وذوبان الشخصية ، وتمثيل الأكابر ، عِلَلٌ لا تُذمُّ فى مجال قَدْرَ ما تَذم فى المجال الدينى ، حيث لايبلغ أحد درجة التقوى إلاّ إذا استقامت خلائقه وطابت سجاياه .

وكل تظاهر - مع فقدان هذا الأساس - لا يزيد المرء إلاّ مَسْخاً .

من بضع سنين سمعت غلاماً فى كلية الحقوق - اشتغل بَعْدُ فى الصحافة - يخطب جَمْعاً كبيراً من الناس ، ويتناول موضوعاً أشبه بوحدة الوجود ، أو الفناء فى اللّه ، أو لا أدرى بالضبط ، من هذه الموضوعات التى تكلَّم فيها الصوفية بعد دراسات ومجاهدات مُرَّة ، ولم ينتهوا فيها إلى حدود يقرُّها الإسلام الحقُّ .

وسمعت الغلام الخطيب يتمثل بقول الشاعر الصوفى فى مناجاة اللّه :

ولو خَطَرَتْ لى فى سواك إرادة على خاطرى يوماً حكمتُ بِرِدَّتى !!

وهذا حكم باطل . وقد نسمعه من أساتذته الكبار فى ميدان الدعوة والتعبُّد والمجاهدة المضنية ، فلا نُسيغه منهم إلاّ على تجوِّزٍ وإغماضٍ .

فكيف نقبله من غلام بينه وبين هذه المجاهدات أمد بعيد ؟! .

وعادت بى الذاكرة إلى فصول المدرسة الأولى يوم كنا نحفظ قطعاً من روائع الشعر والنثر ، ونُكلف بإلقائها . لقد حفظ زميل لى يجيد فن الإلقاء خطبة «**طارق بن زياد**» وهو يحرِّض رجاله على مهاجمة القوط .

لقد تخيلنا أنَّ السفن المحترقة وراءنا ، وأن جيوش الإسبان تجاهنا ، وأن ميدان المعركة قد انتقل إلى رَحْبة المدرسة !! .

ماذا لو زعم التلميذ الماهر أنه «طارق بن زياد» نفسه؟! .

إنَّ المهزلة التى يضحكك افتراضها هى التى وقعت فى مجال التديّن نفسه ، فقد رأيتُ الغلمان الذى يحتاجون إلى مراحل هائلة من التهذيب والتنقية يقفزون إلى المرتبة الخرافية لبيت «ابن الفارض» :

ولو خطرتْ لى فى سواك إرادة على خاطرى يوماً حكمت بردَّتى

ومن ثَمَّ تحوَّل تمثيلهم لبعض الكبارِ . . إلى كبارٍ فى نظر أنفسهم ونظر الجاهلين !! .

إن خروج الإنسان على سجاياه ، وانفصاله عن طباعه العقلية والنفسية التى لا عوج فيها أمر يفسد على الإنسان حياته ويثير الاضطراب فى سلوكه .

وقد علمتَ قصّة الغراب الذى راقه المشى على الأرض ، فلا هو استطاع الخطو كما يبغى ، ولا هو استطاع الطيران كما خُلق .

إنه عسير جدّاً على الإنسان مهما حاول أن يكون غيره .

قال «ديل كارنيجى» : (سألت مدير المستخدمين فى شركة «سوكونى فاكوم» عن الغلطة الكبرى التى يرتكبها طلاب العمل فى شركتهم فأجاب : إنَّ أكبر غلطة يرتكبها طلاب الأعمال هى أنهم لا ينطلقون على سجاياهم ، فبدلاً من أن يصارحوك بحقيقة أفكارهم وآرائهم يحاولون أن يجيبوا على أسئلتك بمَا يَظُنُّونَهُ الجواب الذى تريده أنت ، ولكن هذه الحيلة قلَّما تُفلح ، فالناس يعرفون الشخص الذى يدَّعى ما ليس فيه ، كما يعرفون العملة الزائفة .

وقال العالم النفسانى «وليم جيمس» : لو قِسْنا أنفسنا بما يجب أن نكون عليه لاتَّضح لنا أننا أنصاف أحياء ، ذلك أننا لا نستخدم إلاّ جانباً يسيراً من مواردنا الجسمانية والذهنية ، أو بمعنى آخر أن الواحد منا يعيش فى حدود ضيِّقة يصنعها داخل حدوده الحقيقية ، فإنَّه يمتلك قوى كثيرة مختلفة ، ولكنه لا يفطن إليها عادة ، أو يخفق فى استغلالها كلها) .

قال «كارنيجى» : (إنك شىء فريد فى هذا العالم . إنك نسيج وحدَك ، فلا الأرض منذ خُلقت رأت شخصاً يشبهك تمام الشبه ، ولا هى فى العصور المقبلة سوف ترى شخصاً يشبهك تمام الشبه .

وينبئك علم الوراثة بأنك تخلَّقت جنيناً نتيجة لتلاقى أربعة وعشرين زوجاً من «الكروموزومات» أسهم فيها بالنِّصف كلٌّ من والديك ؛ وقد تضافرت هذه الأزواج الأربعة والعشرون على توريثك الصفات التى تتميز بها .

ويقول «امران شاينفلد» فى كتابه «أنت والوراثة» : إنَّ كل «كروموزوم» يحمل جينات تعد بالمئات ، وأنَّ واحداً فحسب من هذه الجينات يستطيع فى بعض الأحيان أن يغيِّر حياة المرء تغييراً شاملاً .

نعم فالحق أننا مخلوقون بدقَّة تثير الرهبة وتستدعى الإعجاب ، وحتى بعد التقاء أبويك أحدهما بالآخر وتزاوجهما فإن احتمال خروجك أنت بالذات إلى حيز الوجود كنسبة واحد إلى ٣٠٠,٠٠٠ بليون ، أو بمعنى آخر لو أن لك ٣٠٠,٠٠٠ بليون أخ وأخت لكانوا جميعاً مختلفين عنك مناقضين لك .

ثم يقول : أنت نسيج وحدَك فى هذه الدنيا . فاغبط نفسك على هذا ، واعمل على الاستزادة ممّا ركَّبته فيك الطبيعة من مواهب وصفات .

قال : «ايمرسون» : سوف ينتهى كل امرئ إلى وقت يدرك فيه أنَّ الحسد جهل ، وأن التشبُّه انتحار ، وأنه ينبغى للمرء أن يأخذ نفسه على علاَّتها ، ويرضى بها كما قسمها اللّه له . . ويعلم أنَّ الأرض على امتلائها بالخيرات لن تهبه حبة من شعير ما لم يبذل الجهد فى تعهد تلك الأرض التى تنبت له الشعير ، كذلك القوة التى أودعها اللّه فيه إنها فريدة فى نوعها ، فلا أحد غيره يعلم كنهها ، ولا هو نفسه يحيط بمداها ما لم يضعها موضع التجربة) .

❋❋❋❋

على هذه الأسس العلمية التى نقلناها وشرحناها فسَّرت مجلة «منبر الإسلام» قوله عزَّ وجل :

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١)

ولا بأس أن ننقل هنا هذا التفسير للآية ، إذ هو تلخيص حسن لكلام «ديل كارنيجى» واهتداء بالشواهد التى ساقها ، ثم إنه لا تكلُّف فيه ولا جَوْر .

قال المحرر :

وردت هذه الآية الكريمة فى سياق النَّظْم الذى تضمَّن حديث القِبْلة وتحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة المكرمة . . ومن ثَمَّ كان لابدَّ للمفسِّرين أن يلحظوا الرابطة التى بينها وبين موضوع القِبْلة ، وأن يبيِّنوا حظها الذى تؤديه من معانى هذا الحديث ، فقالوا :

١ - الوجهة هى القِبْلة ، ومن معنى الآية على هذا : إن لكلِّ أهل دين وملّة قِبْلة يتَّجهون إليها ، مشركين كانوا أم كتابيين .

(١) البقرة : ١٤٨ .

٢ - إنها خاصة بأهل الكتب السماوية وحدهم ، وهم : اليهود ، والنصارى ، والمسلمون ، فلكلٍّ منهم قبلة خاصة به .

٣ - إنها خاصة بالمسلمين وحدهم ، والمراد أن لكل قوم من المسلمين جهة من الكعبة يصلُّون إليها ، جنوبية ، أو شمالية ، أو شرقية ، أو غربية .

اختلاف خصائص النفوس

على أنَّ الآية الكريمة تتَّسع لمعنى آخر ، إذ تنص على أنّ لكل إنسان مذهباً فى الحياة ، أو اتِّجاهاً خاصًّاً يتَّجه إليه ، بحسب ما يجد فى نفسه من ميل طبيعى ، أو ملاءمة لخصائص ذاته .

ولسنا نَقْصُر المذهب هنا على أن يكون للإنسان فى الحياة مبدأ واضح متميز فى السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الفلسفة ، أو نحوها ، بل نريد الدائرة الواسعة التى تشمل البشر جميعا أصحاب المذاهب المتميزة وغير المتميزة .

فإنَّ الناسَ ليسوا نسخة واحدة مكرَّرةً متماثلةً فى ملامح النفس ومشابه البدن . . فهم من حيث القالب الحسّى مختلفون طولاً وقِصَراً ، ونحافة وغِلَظاً ، وقوّة وضعفاً ، وصحَّة ومرضاً . . وفى صفة الأنف والعين والفم والجبهة وسائر ملامح الوجه . . أىْ أنَّ أبدانهم ووجوههم ليست مصبوبة فى قوالب متماثلة ، ولا مطبوعة على مثال واحد . . بل إن الاختلاف ليذهب فى تلك الناحية الحسيّةحتى يشمل الأمور الدقيقة التى لا يكاد يُلتفت إليها ، كتغاير آثار البنان فى البصمات المختلفة لملايين البشر .

هذا الاختلاف المعجز العجيب الذى يدلُّ على قدرة الخالق سبحانه يقابله اختلاف آخر فى ملامح النفس ، وتسوية الطبع ، وتقدير الغرائز ، وخصائص الفكر والعاطفة . . فكما يختلف الناس فى التقاسيم الحسيّة الظاهرة يختلفون فى الملامح النفسيّة الباطنة .

فلكل إنسان قالبه البدنى الذى لا يماثله فيه أحد ، وكيانه المعنوى الباطن الذى يتميز به عمن سواه .

اختلاف وجهات القلوب:

ومعروف أنَّ القالب الحسِّىَّ إنْ هو إلا وعاء أو ظرف لخصائص الكيان المعنوى ، وأنَّ العوامل الباطنة المختلفة هى التى تتحكم فى توجيه البدن إلى الوجهة التى تشاء ، وتفرض عليه من ألوان التصرفات ما تريد ، فللطبع أحكامه ، وللغرائز مطالبها ، وللعاطفة أشواقها وميولها ، وللفكر منطقه ونقده ، وتمييزه . وكل ذلك لا يستطيع أن يتخذ سبيله إلى ظاهر الحياة إلاَّ عن طريق البدن . أى لا يستطيع أن يعبِّر عن نفسه ، ويكشف حقيقة مستورة إلاَّ بوساطة الأجهزة المختلفة والجوارح المتباينة التى يتألف منها البدن ، فالمرء حين يتكلم ، أو يكتب ، أو يشير بيده ، أو يمشى برجله ، أو يبيع ، أو يشترى ، أو يتصل بالناس ، أو يتقلب فى أنواع التصرف ؛ إنما ينبعث بنداء بواعث كامنة ، وإملاء عوامل باطنة ، وما حركات البدن إلاَّ التعبير الطبيعى عن مقاصد تلك البواعث والعوامل .

فحقيقة الإنسان - إذًا - ليس هى بدنه الذى يُؤمر فيأتمر ، ويُساق فيتحرَّك ، ويُسخَّر فيلزم ما يلى عليه أو يُرسم له ، بل هى المزاج المعنوى الذى يجمع اتجاهات الطبع والغرائز والعاطفة والفكر فى نسق واحد ، أو كيان نفسانى يطبع سلوك صاحبه بطابعه الخاص ، ويرسم له فى أذهان الناس شخصية متميِّزة عمَّا سواها .

هذا المزاج المعنوى ، أو هذا الكيان النفسى هو حقيقة المرء التى تهب له وجوده المستقل ، وتميزه بخصائصها الذاتية فلا يماثله فيها أحد .

وبما أنَّ سلوك المرء إنْ هو إلاّ الخط الذى ترسمه له طباعه ، وميوله وغرائزه وذهنه ، فلا جَرَم أن يكون لكل امرئ خطه الذى لا يشاركه فيه أحد ووجهته التى يتميَّز بها دون الناس .

وهذا كله هو من معانى قوله سبحانه : ﴿**ولكلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها**﴾ ، أى لكل من الناس قبلة ، أى وجهة ، على ما ذكره الإمام القرطبى فى تفسيره [1] .

احترام الوجود الذاتى للإنسان

والحق سبحانه لا يريد بهذا القول الكريم مجرّد التقرير والخبر وإفادة المعنى ، بل يريد النصَّ على سُنَّة باقية ، وقانون أصيل من قوانين صلاح الفرد والمجتمع .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن .

١ - يريد النص على أنَّ لكل إنسان شخصيته المستقلّة ، فإذا هو حافظ على هذا الاستقلال ، ودعم أصوله ، وزكّى فروعه ، وعاش فى نطاق ذاتيته الخاصة ، فقد مضى على سُنّة اللّه إذ أراده أمّة وحده ، ودولة قائمة بذاتها . . وإذا هو لم يعرف لنفسه حقَّها ، فنافق الرؤساء ومن إليهم ، أو مضى يقلِّد بعض ذوى الشهرة فى حركاتهم وأصواتهم ومظاهرهم وطريقة أدائهم للأعمال ، أو راح على غير سجيّته يتكلَّف الأمور ويرائى الناس فى تصرفاته ، فقد جانب سُنَّة اللّه ، وأهدر شخصيته ، وغيَّر خَلْق اللّه الذى آثره به وسوّاه عليه ، وتغيير خلق اللّه ما فتئ دَيْدَن الشيطان منذ أقسم بين يدى ربّ العزّة جلَّ شأنه : ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ ﴾(١)

٢ - ويريد سبحانه أن يقرِّر لكل إنسان حقَّه فى اختيار الوجهة التى يريدها لخدمة نفسه وقومه ، أى حقّه فى أن يعيش حرّاً فى نطاق المجتمع الصالح المتكافل ، إذ يجب أن يكون هذا الاتجاه من نبع فؤاده ووحى ضميره ووجدانه ، واللّه سبحانه يقول : ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ ، أى لكل إنسان وجهة هو الذى يتولَّى نفسه التوجه إليها ، أو هو الذى يولِّى وجهه ونفسه نحوها . فإذا حملناه على غير طبيعته ، فقد حملناه على الرَّهَق ، وأدخلنا التشويش على عوامله النفسية المؤتلفة ، وذلك أيضاً من تغيير خلق اللّه .

ويريد اللّه سبحانه أن يقرر حرية الرأى لكل إنسان . فلكل إنسان وجهة ينظر إلى الحياة من زاويتها ، ولا يدرى أحد فى أى زاوية يكون الحقّ والخير . وربَّ حكمة ينشدها كبار الناس فى آفاقهم العقلية من زواياهم الخاصة فلا يجدون لها أثراً ، لأنها مختبئة عنهم فى زاوية رجل مغمور ، إذا نظر إليها بيَّنها فى بساطة ووضوح . .

فالنظر إلى الحياة من زواياها المختلفة يكفل لنا الإحاطة بأوفر حظ من الصواب والخير ، أو هو نوع من التعاون الذهنى على استثارة ما فى هذا الكون من منافع حسيَّة ومعنويّة لمصلحة الفرد والمجموع . ولذلك خلقنا اللّه سبحانه متفاوتين فى طبيعة التفكير ، وجعل لكلٍّ منّا زاويته الخاصة التى ينظر إلى الحياة من عندها . .

وليس معنى حرية التفكير أنَّ الإنسان حرٌّ فى تنشيط مواهبه العقلية وعدم تنشيطها ، فإن شاء فكرَّ وشحذ ذهنه ، وإن شاء تجاهل كل ما حوله ، وترك ذهنه

(١) النساء : ١١٩ .

كاسداً معطَّلاً . . لا . . فإنَّ لكلٍّ موهبة وهبها لنا سبحانه حقّاً علينا ، هو تنشيطها ، واستعمالها فيما خُلقت لّه ، وذلك من صميم شكر اللّه . . أما تعطيلها وإهمالها فهو ضَرْب من الكنود والجحود لنعمته سبحانه .

فوق أنه ضرب من الحرمان والشقوة . .

وما قيمة المرء إذا عاش بذهن كاسد معطَّل ؟! .

وما قيمة الأمة إذا عاش ملايينها الكثيفة فى معزل عن تمحيص الأمور وإدراك وجوه الحق فيها ؟! .

إنَّ لك أن تتصوَّر مبلغ ما يفوتها من المنافع وينالها من الشلل والتأخر إذا كانت زوايا البحث عن الحق ومنابع الخير فيها معطَّلة ، أو مُهْدَرة على هذا النحو الأثيم .

والقول الفصل فى حرية الرأى أنَّها حقٌ طبيعى للمرء ، ولكنَّه حقٌ يتخذ صفة التكليف اللازم ، والرسالة الواجبة الأداء . .

ذلك ، وحرية الرأى هى حارس العدالة فى الشعب ، والسياج الذى يكفُّ الحاكم أن يستبدَّ بأمور الناس .

ولا قيام لحكم الطاغية إلاَّ على الأذهان الممسوخة والأفكار الراكدة البلهاء ، والحَجْر على ذوى الرأى أن ينظروا إلى الأمور إلاَّ من الزاوية التى يراها لهم الطاغية . . وقد أدرك «فرعون مصر» قديماً تلك الحقيقة ، فأعلن إلغاء حرية الرأى بقوله :

﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[1] أى أنّه اعتزم تعطيل مَلَك الرأى فيهم ، فلا يسمح أن يكون لهم رأى فى الأمور غير ما يرى هو فيها .

وذلك من مَسْخ المواهب ، وتغيير خلق اللّه ، وصميم أمر الشيطان .

احتمال الفساد والفرقة

ولكن ما عاقبة أن يصبح كل منا حرّاً فى تفكيره ، وميوله ، وشخصيته واتجاهه فى الحياة ؟ .

ألاَ يجوز أن يفضى بنا ذلك إلى ضرب من البلبلة ، والفرقة ، والتدابر ، ونُبتَلى بالشحِّ المطاع ، والهوى المتَّبع ، وإعجاب كلِّ ذى رأى برأيه ؟ .

(١) غافر : ٢٩ .

إن تلك المبادئ تكون مأمونة العاقبة لو أنَّ طبيعة الإنسان مفطورة من الخير المحض الذى لا يشوبه الاستعداد للشر . . أمَا وهو يحمل فى طبيعته خصائص الحَمَأ المنتن إلى ما يحمل من سر الروح العلوى ، فإنَّ إطلاق تلك المبادئ بلا قَيْد هو إطلاق لقوى الشرِّ تعيث فى الأرض فساداً ، فيكثر فينا السخفاء والماجنون ، ويقلُّ التعاون ، وتنتشر المنكرات ، ويصعب جمع أفراد الأمة فى رأى عام ، وخطَّة تكفل وحدتها ومصلحتها .

ضمان الصلاح والوحدة

لهذا نرى الآية الكريمة تقرِّر الشروط وتضع القيود التى تنفى عنَّا شرَّ تلك المبادئ ، وتكفُل خيرها وبرَّها ، وذلك إذ يقول سبحانه :

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١)

فإذا كان لكل إنسان وجهته الخاصة ، فيجب أن تكون لتلك الوجهة غايةٌ معيّنة تنظِّم سيرها ، وتُحكِم أمرها ، ولا نستطيع أن نتصوَّر اتجاهاً للمرء ليس له غاية مقصودة أو غرض منشود إلاّ أن يكون أبلَه أو مجنوناً .

ولا ينازع أحدٌ فى أن الغاية التى يصلح بها اتجاه المرء - ولا يصلح له اتجاه سواها - هى الخير ، فذلك مقرِّر فى كل فطرة ، وكل فلسفة رشيدة ، وكل دين ، ولذا يأمرنا اللّه سبحانه بقوله : ﴿فاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ .

أى فاجعلوا الخيرَ غايتكم فى كل وجه تنبعثون إليه .

فإذا تقرر الهدف كانت وحدة الأمة .

وإذا كان الخير هو الغاية ، كان الصلاح لا محالة .

(١) البقرة : ١٤٨ .

إحساس المرء بنفسه إذا زاد عن حدّه يحجبه عن الآخرين ويحصره فى عالم خاص به .

ولا يزال ماضيا فى تكبير شأنه وتهوين غيره ولا تزال نفسه تعجبه وتنسج حول فكره غلالة سميكة من الغرور والشراهة .

ولا تزال "أنا" تنمو فيه ويتضاعف ورمُها وتضخمها ، حتى يقول "أنا ربكم الأعلى" .

إن حب الذات ، والعيش فى إفرازاتها - ولو كانت حريرا كالذى تفرزه دودة القز منته حتما بالاختناق وهو اختناق أدبى وإن وصل صاحبه إلى قمة المجد والسلطان .

محمد الغزالى

اصنع من الليمونة الملحة شرابًا حُلوًا

الصبر ـ كما عرّفه علماؤنا : حَبْس النفس على ما تكره .

وهذا تفسير حسن إذا عنينا به مواجهة الشدائد البغيضة بثبات لا نكوص معه ، وعقل لا يفقد توازنه واعتداله .

غير أنَّ حبس النفس على ما تكره إذا عنينا به دوام الشعور بمرارة الواقع ، وطول الإحساس بما فيه من سوء وأذى ، قد ينتهى بالإنسان إلى حالٍ منكرة من الكآبة والتبلّد .

وربما انهزم الصبر أمام المقارنات التى تعقدها النفس بين مانابها وما كانت تحب وتشتهى ، كما قال الشاعر :

أقول لنفسى فى الخلاء ، ألومها : لك الويل ، ما هذا التجلّدُ والصبر؟

وهذه نهاية الإحساس المحض بالألم ، والخبط فى ظلماتِه دون التماس نور يهدى فى دياجيه ، أوعزاء ينقذ من مآسيه!!

والإسلام يعمل على تحويل الصبر إلى رضا فى المجال الذى يصحُّ فيه هذا التحوُّل ، ولن يتم تذوُّق النفس لبرد الرضا بإصدار أمر جاف ، أوفرض تكليف أجوف ، كلاً ، فالأمر يحتاج إلى تلطُّف مع النفس ، واستدراج لمشاعرها النافرة ، وإلا فلا قيمة لأن تقول : أنا راضٍ ، ونفسك طافحة بالضيق والتَقَزُّز!!

وأول ما يطلبه الإسلام منك أن تتَّهم مشاعرك حيال ما ينزل بك .

فمن يدرى؟ رُبَّ ضارّة نافعة صحّت الأجسام بالعلل ، رُبَّ محنة فى طيِّها مِنْحة .

من يدرى؟ ربما كانت هذه المتاعب التى تعانيها باباً إلى خير مجهول ، ولئن أحسنَّا التصرف فيها لنحن حريُّون بالنفاذ منها إلى مستقبل أطيب .

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١)

إنَّ أكثرنا يتبرَّم بالظروف التى تحيط به ، وقد يضاعف ما فيها من نقص وحرمان ونَكَد ، مع أن المتاعب والآلام هى التربة التى تنبت فيها بذور الرجولة .

وما تفتَّقت مواهب العظماء إلا وسط ركام من المشقَّات والجهود .

وفى هذا يقول «ديل كارنيجى» : (كلما ازددتُ إيغالاً فى دراسة الأعمال العظيمة التى أنجزها بعض النوابغ ، ازددتُ إيماناً بأن هذه الأعمال كلَّها ما تَمَّت إلاّ بدوافع من الشعور بالنقص ؛ هذا الشعور هو الذى حفزهم إلى القيام بها واجتناء ثمراتها . نعم ، فمن المحتمل أنَّ الشاعر «ملتون» لم يكن يقرض شعره الرائع لو لم يكن أعمى ، وأنَّ «بيتهوفن» لم يكن ليؤلف موسيقاه الرفيعة لو لم يكن أصمّ . .) .

إنَّ هؤلاء المصابين لم يجسِّموا مصائبهم ثم يطوفوا حولها مُعْوِلين منتحبين ، ولم يَدَعوا ألسنتهم تلعق ما فى واقعهم المرّ من غضاضة ، كلاّ .

لقد قبلوا الواقع المفروض ، ثم تركوا العَنان لمواهبهم تحوِّل محنته إلى منحة ، وتحوّل ما فيه من كدر وطين إلى ورود ورياحين .

وتلك هى دعائم العظمة ، أو هذا هو تحويل الليمونة الحامضة إلى شراب سائغ ، كما يقول «كارنيجى» أوكما نقل عن «إيمرسون» فى كتابه «القدرة على الإنجاز» حيث تساءل : (من أين أتتنا الفكرة القائلة إنَّ الحياة الرغدة المستقرة الهادئة الخالية من الصعاب والعقبات تخلق سعداء الرجال أوعظماءهم؟ إنَّ الأمر على العكس ، فالذين اعتادوا الرثاء لأنفسهم سيواصلون الرثاء لأنفسهم ولو ناموا على الحرير ، وتقلَّبوا فى الدَّمَقْس . والتاريخ يشهد بأنَّ العظمة والسعادة أسلمتا قيادهما لرجال من مختلفى البيئات ؛ بيئات فيها الطيِّب وفيها الخبيث ، وفيها التى لا تميز بين طيِّب وخبيث .

فى هذه البيئات نبت رجال حملوا المسؤوليات على أكتافهم ، ولم يطرحوها وراء ظهورهم . .) .

❀❀❀❀❀

(١) البقرة : ٢١٦ .

وليس كل امرئ يُؤتَى القدرة على تحويل قسمته المكروهة إلى حظ مستحب ذى جَدوى ، فإن عُشَّاق السُّخْط ومدمنى الشكوى أفشل الناس فى إشراب حياتهم معنى السعادة إذا جفَّت منها ، أوبتعبير أصحَّ إذا لم تجىء وِفْق ما يشتهون .

أما أصحاب اليقين وأولو العزم فهم يلقَون الحياة بما فى أنفسهم من رحابة قبل أن تلقاهم بما فيها من عَنَت .

وكما يفرز الجسم عُصارة معينة لمقاومة الجراثيم الهاجمة يفرز هؤلاء معانى خاصة تمتزج بأحوال الحياة وأغيارها فتعطيها موضوعاً وعنواناً جديدَين .

واسمع إلى ابن تيمية وهو يقول ـ مستهيناً بتنكيل خصومه : **إنَّ سجنى خَلْوة ، ونَفْيى سِياحة ، وقَتْلى شهادة . .!!**

أليست هذه الفواجع أقصى ما يصنعه الطغاة؟

إنَّها عند الرجُل الكبير قد تحوَّلت إلى نعم يستقبلها بابتسام لا باكتئاب .

وقريب من هذا المسلك القويِّ ما رواه «ديل كارنيجى» عن سيدة نُقلت مع زوجها الضابط إلى صحراء موحشة ، فضاقت ذرعاً بمعيشتها ، وهمَّت بترك رجلها وحده والعودة إلى أهلها ، قالت هذه السيدة : (ولكن خطاباً وردَ إلىَّ من أبى تضمن سطرين ، سطرين اثنين سأذكرهما ما حييت لأنهما غيَّرا مجرى حياتى وهذان هما :

من خلف قضبان السجن تطلَّع إلى الأفق اثنان من المسجونين ، فاتجه أحدهما ببصره إلى وَحْل الطريق ، أما الآخر فتطلع إلى نجوم السماء .

قالت السيدة : وقد تلوتُ هذه الكلمات وأعدتُ تلاوتها مراراً ، فخجلتُ من نفسى وعوّلتُ أن أتطلَّع إلى نجوم السماء .

من قديم عُرِف تفاوت الهمم باختلاف الطاقات فى الإفادة من الشدائد ، والكسب من الظروف الحَرجة .

أو كما قال «وليم بوليثو» : ليس أهم شىء فى الحياة أن تستثمر مكاسبك ، فإن أى أبْلَه يسعه أن يفعل هذا ، ولكنَّ الشىء المهم حقّاً فى الحياة هو أن تحيل خسائرك إلى مكاسب ، فهذا أمرٌ يتطلَّب ذكاء وحِذْقاً ، وفيه يكمن الفارق بين رجل كيِّس ورجل تافه) .

وهذا حق ، وانظر إلى هذه الأمثلة لتحويل الخسائر إلى مكاسب :

عندما فَقَد عبدالله بن عباس عينيه ، وعرف أنه سيقضى ما بقى من عمره مكفوف البصر ، محبوساً وراء الظلمات عن رؤية الحياة والأحياء ، لم ينطوِ على نفسه ليندب حظَّه العاثر .

بل قَبِل القسمة المفروضة ، ثم أخذ يضيف إليها ما يهوِّن المصاب ويبعث على الرضا فقال :

إنْ يأخذِ الله من عينيَّ نورَهما ... ففى لسانى وسمعى منهما نُورُ
قلبى ذكىّ ، وعقلى غيرُ ذى دَخَلٍ ... وفى فمى صارم كالسيف مأثورُ

وقال «بشار بن برد» يردُّ على خصومه الذين ندَّدوا بعماه

وعيّرنى الأعداءُ ، والعيبُ فيهمُو ... فليس بعارٍ أن يقال ضريرُ
إذا أبصر المرء المروءةَ والتُّقَى ... فإن عَمَى العينين ليس يضيرُ
رأيتُ العمى أجراً ، وذُخْراً وعِصْمةً ... وإنى إلى تلك الثلاثِ فقيرُ

ولا شك أن تلقِّى المتاعب والنوازل بهذا الروح المتفاءل ، وهذه الطاقة على استئناف العيش والتغلُّب على صعابه ، أفضل وأجدى من مشاعر الانكسار والانسحاب التى تجتاح بعض الناس وتقضى عليهم .

وانظر البَوْن بين كلام «ابن عباس» و«بشار» ، وبين ما قاله «صالح بن عبدالقدُّوس» لّما عمى :

على الدنيا السلام ، فما لشيخٍ ... ضريرِ العين فى الدنيا نصيبُ
يموت المرءُ وهو يُعَدُّ حيّاً ... ويُخْلِفُ ظنَّه الأملُ الكذوبُ
يمنِّينى الطبيبُ شفاءَ عينى ... وما غيرُ الإله لها طبيبُ
إذا ما مات بعضُك فابكِ بعضاً ... فإنَّ البعض من بعضٍ قريبُ

ونحن نحسُّ الرقَّة لهذا الفؤاد الجريح ، غير أنه خير لصاحبه أن ينهض ويسير ، ويضاعف الإِنتاج فى الحياة من مواهبه الأخرى ، كما فعل الرجلان قبله .

العمل بين الأثَرة والإيثار

غريزة حب النفس أصيلة فى بنى آدم ، ولا معدَى عن الاعتراف بها ثم مراقبة سيرها فى الحياة حتى لايشرد عن سواء الصراط .

وليست هذه الغريزة شرّاً محضاً كما يبدو للنظر العاجل ، فإنَّ نشاط العمران على ظهر الأرض يعود قبل كل شىء إليها .

والقانون النفسانى العتيد القائم على حبِّ اللذة وكره الألم ، القائم على طلب المنفعة الخاصة ورفض الضرر ، هو سرُّ الاتصال الدائم فى مواكب الحياة والاتساع المستمر فى دائرتها .

بل لعلَّه سرُّ التقدّم العلمى المطَّرد ، والكشوف التى نقلت العالم من طور إلى طور .

وحبُّ النفس إن يك طبيعة الناس فى الدنيا فعليه التعويل كذلك فى إحراز الآخرة ، والزحزحة عن النار ودخول الجنة .

وليس ضعةً بالمرء ـ كما يزعم الزاعمون أن يعبد الله ابتغاء جنته أوخشية ناره ، إنَّ ذلك كمال عظيم ومسلك كريم .

ولا تخدعنّك عن هذه الحقيقة شطحات الصوفية وخيالاتهم الحائرة .

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(١)

وإنما تُحذَرُ هذه الغريزة وتُتَّقى عواقبها عندما تمرض ، وعندما تتورَّم وتتضخَّم ، ويعانى صاحبها منها العَنَت ، ويعانى منها الظلم والبَطَر .

وإحساس المرء بنفسه إذا زاد عن حدّه يحجبه عن الآخرين ، ويحصره فى عالم خاص به .

ولا يزال ماضياً فى تكبير شأنه وتهوين غيره .

(١) الزمر : ١٣ .

ولا تزال نفسه تعجبه ، وتنسج حول فكره غلالة سميكة من الغرور والشراهة .

ولا تـزال «أنا » تنمـو فيـه ، ويتـضـاعف ورَمُـها وتَضَخُّمها ، حتى يـقول : « أنا ربّكـم الأعـلى !! » .

إنَّ حب الذات ، والعيش فى إفرازاتها ـ ولو كانت حريراً كالذى تفرزه دودة القزِّ ـ منته حتماً بالاختناق .

وهو اختناق أدبىٌّ وإن وصل صاحبه إلى قمة المجد والسلطان!!

و«أنا» دائماً ـ شارة القصور الأدبىّ ، والتصرف البهيمى .

والأنانيون فى كل مجتمع لعنةٌ ما حقه ، تحترق فى سعيرها الفضائل والمصالح ، وتذوب فى مرضاتها الأفراد والجماعات .

ولا بـأس أن نستـطرد قليـلاً هنا لنذكـر أن قـوله «أنا» قـد تكون آية علي تحـمل التـبـعات الضخمة .

وقد تكون مقصودة لذكر حقيقة يجب أن تتقرر فى الأذهان .

وهى فى هذه المجالات أقرب إلى الإيثار منها إلى الأثَرة .

بل لا صلة لها بالمعانى الضيِّقة التى تُعرف بها ، وذلك كما فى الآية الكريمة :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾(١)

وكما فى قول الرسول ﷺ : «**أنا النبىُّ لاكذب ، أنا ابن عبد المطلب**» .

فأنا فى هذه المناسبات صيحة القوة لنصرة الحق ، وفاتحة العمل لدعم الإيمان ، والتعهد بأداء الواجب وإن نهضت تكاليفه ، والشعور الحادُّ بأن المرء قبل غيره مفروض عليه أن يقوم بما نُدب إليه .

وفى الحديث أيضاً : «**إنَّ أخشاكم وأعلمكم بالله أنا**» فأنا هنا ليست ترجمة غرور واستـعلاء ، ولا يمـكن بتَّـةً أن تومئ إلى هذه المشاعر ، وإنما هى تحديد للمصدر الذى يؤخذ منه الحق وتقتبس منه الأسوة الحسنة ، وينظر إلى ما عداه على أنه تنكبٌ والتواء .

---

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٨ .

«أنا» التى يقولها امرؤ فى مجال الطمع غير «أنا» التى يهتف بها رجل فى مجال الفَزَع ، وبين الاثنين بُعْدُ المشرقين .

والواقع أنَّ الأَثَرَة يجب أن تعالج منذ الطفولة المبكِّرة ، حتى تنبت الناشئة وهى تنظر إلى نفسها وإلى غيرها نظرة لا جَنَف فيها ولا قُصور .

وقد قلنا فى كتبنا الأخرى : إن الإسلام جعل «الأخوَّة» العامة نظاماً عادلاً تُصان به الحقوق والواجبات ، ويتم فيه تبادل العاطفة على نحو يرقَى بالإِنسان ، ويجمع بين ما ينشده لنفسه وبين ما يجب عليه للآخرين .

ولعلَّ من خير ما قيل فى آداب الأخوة ما نقله صاحب «قوت القلوب» : «ليكنْ صاحبك من إذا خدمته صانك ، وإن قعدتْ به مؤونةٌ مانك ، وإن مددتَ يدَك بخير مدّها ، وإن رأى منك حسنة عدَّها ، وإن رأى منك سيئة سدَّها ، وإن سألته أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وإن نزلتْ بكَ نازلة واساك ، وإن قلتَ صدّق قولك ، وإن تنازعتما آثرك .

إن صديقك هو من يسدُّ خلَلَك ، ويستر زَلَلك ، ويقبل عِلَلَك ، ومن حقِّ الصديق عليك أن تتجاوز له عن ثلاث : عن ظلم الغضب ، وظلم الهفوة ، وظلم الدَّالة» .

وقد حكى «ديل كارنيجى» فى كتابه قصصاً كثيرة يريد من سَوْقها انتزاع الأَثَرَة من النفس ، والزجّ بالإنسان فى دائرة المحبة الشاملة والأخوة العامة ، وتدريب المرء على أن يكون فعَّالاً للخير مقبلاً على الناس بالبرِّ والمرحمة والتكريم ، ثم قال : (أخال الكثيرين ممن يقرأون هذا الفصل سيقولون لأنفسهم : هذا الحديث عن الاهتمام بالناس وإسعادهم إنْ هو إلاَّ سخافة ، إنْ هو إلاّ وعظ دينى متنكِّر ، لا ياعم ، يفتح الله ، نفسى أولاً وليذهب «الآخرون» إلى الجحيم .

إن كان هذا رأيك فليكن . . ولكنَّك إنْ حسبتَ أنَّك مصيب فكأنماتزعم أنَّ كل الأنبياء والفلاسفة الذين تعاقبوا على مرِّ العصور كانوا مخطئين . وعلى أية حال إن كنت تنأى عن تعاليم الأنبياء والمصلحين الدينيين فتعال نسأل النصيحة اثنين من الملحدين ، ودعنا نبدأ بالأستاذ «هوسمان» بجامعة كامبردج . لقد ألقى فى عام ١٩٣٦

محاضرة فى جامعة كامبردج قال فيها : لعلَّ أعظم الحقائق التى وردت على لسان إنسان هى التى انطوى عليها قول السيد المسيح - عن ربه طبعاً - : من وجد حياته يضيُّعها ، ومن أضاع حياته من أجلى وجدها .

نعم ، لقد سمعنا وعّاظاً كثيرين يقولون مثل هذا القول ، ولكن «هوسمان» ليس واعظاً ، وإنما هو ملحد ، متشائم ، فكر فى الانتحار أكثر من مرة ، وبرغم ذلك كله فقد أحسّ أنَّ الرجل الذى يَقْصُر تفكيره على نفسه لا ينال من الحياة شيئاً يذكر ؛ بل أحرى به أن يكون شقيّاً تَعِساً ، أمَّا الرجل الذى ينسى نفسه فى معاونة غيره فيصيب متعة العيش .

فإذا لم يكن لقول «هوسمان» تأثير عليك فلنسأل النصيحة أعظم ملحد أمريكى فى القرن العشرين ، وأعنى به «تيودور دريزر» ، لقد سخر «دريزر» من الأديان جميعها ؛ ووصفها بأنها أساطير الأولين ، وقصص من نسج الخيال ، وقال عن الحياة : «إنها قصة يرويها أبله ، لا مغزى لها ، ولا معنى» . ولكن «دريزر» برغم ذلك يقول : إذا شاء الرجل أن يستخلص من الحياة المتعة ، فعليه أن يساهم فى اجتلاب المتعة للآخرين ، فإنَّ متعة الشخص تعتمد على متعة الآخرين ، ومتعة الآخرين تعتمد على متعته) .

من المحزن أن تصل سمعة الوعظ الدينى إلى هذا الدَّرْك ، حتى يضطر الموجِّهون - كى يقنعوا الآخرين بسداد نصائحهم - إلى الاستدلال عليها بكلام أكابر الملحدين!!

ولماذا؟ ليعلم الناس أنَّ الأمر ليس مَصْيَدة لاقتناص ثواب الآخرة .

وليس استدراجاً لإطاعة أوامر الله .

لا . . . إنَّ الأمر يقوم على حقيقة علمية يجب أن يستوى المؤمنون والكافرون فى احترامها .

إذن فلنحبَّ غيرنا ، ولنجتهد فى إسعاده ، فذلك أفضل طريق لراحة أنفسنا وضمان سعادتها ، وليس فى ذلك استجابة لوعظ أوإرشاد .

ونحن نعلم أنّ الأَثَرَة نِقْمة على أصحابها وعلى الناس ، وأنّ الله عزَّ وجل شرع لنا من التعاليم ما يُجنِّبنا نقائصها ، وما يجعل من البشر جماعات متكافلة متعاونة على

البر ، متواصلة بالمرحمة . فلنسمعْ إلى هدايات الله فى هذا الشأن ، علَّ ما بها من روعة وجلال يغنينا عن أقوال الملحدين الصغار أوالكبار .

إنَّ المسلم الكامل عضو نافع فى أمته ، لا يصدر عنه إلاَّ الخير ، ولا يُتوقَّع منه إلاَّ الفضل والبر ، فهو فى حركته وهدأته شعاع من نور الحق ، ومدد من روافد البركة واليمن ، وعون على تقريب البعيد وتذليل الصعب .

يسعَى فى هذه الحياة وقلبه مفعم بالمحبة ، ولسانه رَطْب بالودِّ والمسالمة ، ويده مبسوطة بالنعمة بفيئها على من يلقاه ، ويقدّمها ـ من غير تكلُّف ـ إلى سواه .

تلك هى طبيعة الإسلام ورسالة المسلم فى هذه الحياة . قال رسول الله ﷺ : «**على كل مسلم صدقة**» . فقالوا يانبىَّ الله فمن لم يجد ؟ قال : «**يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق**» . قالوا : **فإن لم يجد ؟ قال : «يعين ذا الحاجة الملهوف»** . قالوا : فإن لم يجد قال : «**فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر ، فإنَّها ـ أى هذه الخصلة ـ له صدقة**»(١) .

وهذا الحديث الكريم يقسم الناس درجات حسب مواهبهم ومنازلهم .

فالقوىُّ الجَلْد زكاة قوته وجَلَده أن يزيد فى إنتاج الأمة ، وأن يسهم فى نهضتها العامة ، وأن يصل نشاطه بنشاط أنداده ، فيتعاونون جميعاً على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

وهو بهذا العمل ينفع نفسه ، ويؤدى الضريبة التى تجب عليه للمجتمع الذى يحيا فيه ، تلك الضريبة التى عبّر عنها الحديث الشريف بقوله : «**على كل مسلم صدقة**» فمن عجز عن هذا العمل الإيجابى الواسع فلن يعجز أن يكون عوناً للآخرين ، ومؤيداً للعاملين .

فإذا لم يرحم بنفسه أعان الراحمين .

وإذا لم ينفع بقوته ساعد النافعين وشدَّ أزر المكافحين .

وذلك ما عبَّر عنه الرسول الكريم بقوله : «يعين ذا الحاجة الملهوف» .

(١) رواه البخارى .

وقد يكون المسلم فى مرتبة دون هذه وتلك ، ليس له من بواعث الكمال ووسائل الترقى ما يجعله قويّاً ينفع أومعيناً يشفع . فعليه عندئذ أن يلزم خاصة نفسه فيفعل الخير ويترك الشر ، ويتمسك بالخصلة الباقية له من شُعَب الإيمان ؛ فلعلَّ هذا أن ينجو به ، كما دلَّ على ذلك ختام الحديث : «**فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة**» .

هذه هى معالم السلوك الطيب كما شرحها رسول الإسلام ، تلمح فيها أنّ المؤمن خير كلُّه ، يتألق فى جبينه الشرف ، وتلتمس فى سيرته المروءة ، ويُقبل عليه من يعرفونه ومن يُنكرونه ، وهم واثقون من نُبْلِ خصاله وكرم خلاله .

إنَّ شرّ الناس عند الله من لا يُرجى خيره ولا يُؤمن شره .

والمؤمن لن يكون كذلك أبداً ، فصلته بالله عزَّ وجل تجعله مرجوّ الخير مأمون الشر ، ورسالته فى الحياة لا تجعله عضواً أشلَّ ولا عضواً فاسداً ، بل عضواً يحقِّق الصالح العام ، ويُرتقب فى ظلِّه الأمانُ ونُجْحُ المقصد .

وقد ضرب رسول الله مثلاً للمؤمن بالنخلة ، كل شىء فيها ينفع ، كأن المؤمن على اختلاف أحواله لن يكون إلاَّ نافعاً ، وإن تفاوتت مظاهر نفعه وتباينت آثارها ، ولعل فى ذلك تفسيراً للآية الكريم : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(١)

فالآية تشرح طبيعة المؤمن ونتائج صدق اليقين فى سلوكه .

إنَّ فؤاده ينبوع جياش بالإحساس والإفضال ، وحياته سلسلة موصولة الحلقات من فعل الخير ودعم المثل العليا وإبراز عناصر الفضيلة .

والجماعة المؤمنة يجب أن تكون صورةً لما وعته تعاليم الإسلام من إعظام لخلال الخير ، وإنكار لخلال الشر ، صورةً تجعل أهل الأرض جميعاً ينظرون إلى أمتنا فتعجبهم أحوالها وتزدهيهم أفعالها .

فإنَّ الناس لا تُغريهم الأقوال المعسولة قدْرَ ما تُغريهم الأعمال الجليلة ، والأخلاق الماجدة .

(١) إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٥ .

رُوى أن صحابياً وقع فى أيدى المشركين فحبسوه ليقتلوه ، فتسرَّب إليه صبىٌّ من أهل الحىِّ وقعد فى حجْره ، وكانت بيد الأسير موسى يحلق بها زوائده ، فتلفَّتت أم الصبى مذعورة ؛ وقد رأت وليدها فى حجْر الأسير ، وطارت بلبِّها الظنون ، فأقبلت عليه فَزِعة ، فنظر إليها الأسير فى وداعة ورقَّة وقال لها : «أظننت أن يصيب ابنك شر ، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله»(١) .

ذاك هو المسلم الحق . ورُوى أنَّ «أبا ذر» رضى الله عنه قال لرسول االله ﷺ حين قال : «**على كل نفس فى كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة**» . قلت : «**يارسول الله : من أين أتصدَّق وليس لنا أموال؟**» . قال : «**من أبواب الصدقة : التكبير ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، وأستغفر الله ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعزل الشوك عن طريق الناس والعَظْم والحَجَر ، وتهدى الأعمى ، وتُسمع الأصمَّ والأبكم حتى يفقه ، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث ، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف ،كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك**»(٢) .

فانظر سعَةَ الدائرة التى يمتد إليها نشاط الفرد الواحد فى مساعدة الآخرين ومواساتهم .

إنَّ العافية إذا ملأت بدن امرئ فإنّ الله يُنيط بها حقوقاً جمّة ، ويفرض على كل عظم وعصب مدداً ينشِّط عليه الضعاف ، ويستريح به المصابون . .

ولا غَـرْوَ فالعافية رأس مال ضخم ، ولكن أكثر الناس يسيئون استغلاله ويحقرون مناله .

فإن كانت هذه وظيفة المسلم الواحد فى بيئته المحدودة فكيف تكون وظيفة الأمة الإسلامية بين أمم العالم أجمع؟ إنَّ أداء حقِّ الله فى هذا المضمار النافع أساس النجاح فى الدنيا وأساس الفوز فى الأخرى . قال رسول الله ﷺ : «**صنائعُ المعروف تقى مصارع السوء ، والصدقة تطفئ غضب الربِّ ، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة ، وأول من يدخل الجنة هم أهل المعروف**» .

(١) البخارى .
(٢) مسند أحمد .

للحياة فى الجسم علائم تدلُّ عليها من إحساس ونبض وحرارة .

ولـلإيمان فى القـلـب عـلائم تدلُّ عليـه ، وتلفت إلى وجـوده حـيّـاً يؤدى واجـبـه ، ويستعدُّ لما يكلَّف به .

وقـد نبّـه رسـول الله إلى مَـعْلَم خطيـر من مـعـالم الإيمان حين قـال : «**إذا سرَّتْك حسنتك وساءتكَ سيئتك فأنت مؤمن**» .

أجـل ، فـإن انـشراح الصـدر لخير تفعله وانقباضه لسوء ترتكبه دليل على أن هنـاك معنى معـيناً يسـيطر عـليك ، ومـقياسًا خـاصّاً تضبط به ما تحب وما تكره مـن خُلُقٍ أوسلوك .

أمَّا الرجل الذي يواقع الدنايا غيـر مـتأذٍّ بما يصـدر عنه فـهـو رجل ميّت الضـمـيـر ، والضمير الميت كالجسم الميت لا يتحرك لطعنة بَلْه أن يهتز لوخزة!!

والإسـلام يفتـرض أنَّ الخير فى نفس المؤمن بعيد الغَوْر كطبقات التربة الخـصبة ، كلما ضربت الجذور فيها وَجَدتْ عناصر موفورة بأسباب الحياة والنماء .

ومن ثَمَّ فالمؤمن فعَّال للخير عن عشق ، ماضٍ فيه على تثبيت ورسوخ .

أمـا الآخـرون من أدعـيـاء المجـتـمع ، ومـتـصنِّعى الخيـر لضـرورات طارئة ، فـإن قلوبهم متـحجِّـرة قـاسـية ، وقـد يكسى هذا الحـجر الجلمـد بطبقـة من الغـبـار والأتربة ، بيد أنَّ هذاالغبار المتراكم ـ مهما كثر ـ لا تنبت فيه بذور ، ولاتصلح عليه زراعة!!

هكذا ضرب الله لنا أمثلة الأدعياء والأُصَلاء فى فعل الخير . فقال :

﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(١)

(١) البقرة : ٢٦٤ - ٢٦٥ .

كما ينزل المطر على الرخام فيغسل ما على سطحه ، ويكشف عن طبيعته ، يجيء الجزاء الأعلى فيكتسح ما على القلوب المتحجِّرة من تراب يشبِّهها بالأرض الخصبة ، وبذلك تبدو على يُبْسها وجفافها وإقفارها من المعروف والفضل .

أما القلوب الأخرى فإنَّ أسرار البركة المودعة فيها ، وآمال البرِّ والإحسان المرتقبة منها تجعل الجزاء الأعلى يحل بها غيثاً غَدَقاً تمرع به وتزدان .

فلنفعل الخير عن حبٍّ مكين ، ولنطهِّره من علل المنِّ والظهور ، ولنتحرَّر من الأغراض الصغيرة التى تجعل الرجل لا يعطى إلاَّ ليكتسب نصيراً ، أو ليتخذ يداً .

***

والأمر يحتاج إلى مِران طويل كيما يخلصُ العملُ من الشوائب التى تشينه ، فتشبث «الأنانية» بالنفس كبير ، والتماس العوض العاجل على بذل المعروف شائع بين الناس ، وإن اختلفت مشاربهم فى نوع هذا العِوَض ومقداره .

ولن يُخطئك ـ وأنت تلمح مسالك الناس ـ أن ترى طغيان الذات ـ لا حبَّ الذات ـ كامناً وراء الكثير من الأعمال والأحوال ، وإن اجتهد أصحابها فى إلباسها صُوَراً بعيدة عن الرِّيبة والجَوْر .

والاضطراب الاجتماعى الذى نعانيه إنما ينبع من هذه العين الحمئة ، فإنَّ فقدان التعاون ، وقلة الاكتراث بشئون الجماعة ، وتأخير الاهتمام بالبلد الذى نحيا فيه والأمة التى نرتبط بها والرسالة التى ننتسب إليها ، كل ذلك أمارة على ضعف اليقين ونُجوم النفاق .

وقد وصف الله عزَّ وجل المنسحبين من معركة أُحد وصفاً يكشف عن داء الأنانية المتغلغل فى نفوسهم فقال :

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾(١)

(١) آل عمران : ١٥٤ .

فهؤلاء قوم أعجبتهم أنفسهم وحدَها وآراؤهم وحدَها ، فإذا لم يُسمع لهم ، وإذا لم ينزل الآخرون على رأيهم ، فلن تراهم إلا ساخطين ناقدين .

ومن هؤلاء من يربط رأيه بمدى المنفعة التى تعود عليه ، فإن امتلأت يداه صاح حامداً ، وإن نسى أوتُنوسى انفتل يصخب ويحتج ويتلمس المطاعن .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾(١)

وجمهور كبير من الناس يعيشون فى حدود مطالبهم الخاصة ، فإذا كانت لهم حاجة اشتد إحساسهم بها ، وطال إلحاحهم فى قضائها . ولا يزالون يسعَون وراء الذى لهم ، ـ أوبتعبير أدقَّ ـ مايرون أنَّه لهم حتى يدركوه عن آخره ، بل يزيدون ويُغالون .

أمَا إذا كان عليهم شىء فهم يذهلون عنه ، وقلّما يذكرونه إلا إذا طُولبوا به وأُزعجوا إليه ، فإذا أدَّوْه بعد ذلك فهو أداء ناقص مبتسر .

هذا لون من الأثَرَة الجشعة الجائرة ذكر القرآن بعض صوره فى قوله عز وجل :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢)

وهذه الأثَرَة التى تظهر فى ضعف الإيمان بالحق والجزاء ، كما تظهر فى بَخْس مكيال أوميزان ، تظهر فيما هو أكبر وأجل .

وقد ذكر القرآن صورة أخرى لها فى الرجل يقبل الحكم له لأنه مَغْنَم ، ويرفض الحكم عليه لأنه مَغْرَم ، غير ناظر لعدالة أومصلحة عامة :

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا . . . ﴾(٣) إلخ الآية .

(١) التوبة : ٥٨ . (٢) المطففين : ١ - ٦ . (٣) النور : ٤٨ ـ ٥٠ .

إنَّ هذا النوع من الخلق الردىء يسىء إلى المجتمع الإسلامى إساءة بالغة .

فإنَّ الشخص الذى لا تهيجه إلا منافعه الخاصة ، ولا يكترث للمصلحة العامة شخص تشقَى به البلاد والعباد .

وكم تُضارّ الدولة من موظف يستغرق انتباهه كلّه حديث المرتّبات والزيادات ، ولا يهتم أدنى اهتمام بحديث العمل الواجب .

إنَّه لا يشعر إلا بما يحسبه حقّاً له . أما ما ارتبط بذمته من تكاليف ، واقترن بهمَّته من مطالب وأعمال فهو لا يدريه .

وما على هذا تُبنى أُمة ، أويقوم مجتمع .

والمجتمع الزكىُّ يقوم على رجال يعرفون حقَّ الله ، وحقَّ الجماعة عليهم ، ويقوم بانشغال هذا وذاك بأداء ما عليهما من واجب ، فإنَّ الثمرة الدانية فى هذا المجتمع أن يصل إلى كل امرئ حقُّه الطبيعىُّ دون ضَجَرٍ أوجدل .

والأنانيون عندما يسلِّطون أفكارهم الضيّقة على الدين يمسخون نصوصه ، ويحرِّفون الكلِم عن مواضعه ، فهم يفهمونه ثواباً بلا عمل ، وثمرة بلا غرس ، أوعقاباً يقع على الآخرين وحدهم ، هيهات أن يمسَّهم منه لفح!!

أجل فإنَّ المحصورين فى حدود أنفسهم وأثَرَتهم ومنافعهم الذاتية تنعكس نصوص الدين مشوّهة فى أفكارهم ، فليسوا يفهمون منها إلا ما يشتهون .

سألنى بعضهم : أليس مصيرنا الجنة نحن المسلمين مصداق قول رسول الله : «من **قال لا إله إلا الله دخل الجنة**»(١) .

فنظرت إليه وقدَّرت المسافة بين عمله وأمله فوجدتها بعيدة بعيدة .

ورأيتُ أنه لا يحفظ من الإسلام إلاَّ ما يظنُّه عوناً على كسله .

كالمتسوّل الذى تغيب عن ذهنه آيات القرآن كلُّها ، فلا يعى منها إلا آية واحدة :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾(٢)

(١) البخارى . (٢) الأنعام : ١٦٠ .

فهو يقرأ الآية ليستدرّ بها الأكفّ ويجمع الأموال .

قلت : ألا تعرف من سنَّة رسول الله إلا هذا الحديث وحده؟

إنَّ رسول الله إلى جانب ما رويت يقول : «**لا يدخل الجنة قتَّات**»(١) .

ويقول : «**لا يدخل الجنَّة قاطع رحم**»(٢) .

ويقول : «**لا يدخل الجنّة من كان فى قلبة مثقال ذرَّة من كِبْر**»(٣) .

ويقول : «**ليس منَّا من غشَّنا**»(٤) .

ويقول : «**ليس منَّا من لطم الخدود ، وشقَّ الجيوب ، ودعا بدَعْوى الجاهلية**»(٥) .

ويقول : «**ليس منَّا منَّ خبَّب ـ أى أفسد ـ امرأة على زوجها**»(٦) .

ويقول : «**ليس منَّا من لم يوقِّر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه**»(٧) .

أفنسيتَ هذه السنن كلَّها لأنها تدلك على ما ارتبط بعنقك من واجبات ولم تَعِ إلا ما حسبته حقاً لك وهو الجنَّة ، فأنتَ تطلبه بلا ثمن؟!

وهذا الصنف من الناس ضعيف الإحساس بأخطائه ، فإذا أُكره على الشعور بنقيصه اقترفها اعتقد أن فى استطاعته تكفير سيئاته كلها باعتذار تافه ، أوحسنةٍ خفيفةٍ .

إنَّ أولى الألباب لَمَّا دعَوا الله أن يغفر ذنوبهم ، كان من إجابته لهم أن قال :

﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾(٨)

---

(١) البخارى . (٢) البخارى . (٣) الترمذى . (٤) مسلم .
(٥) الترمذى . (٦) المنذرى . (٧) الترمذى . (٨) آل عمران : ١٩٥ .

أمَّا الحمقى فهم الذين يتوهمون أنَّ خطيئاتهم الكبرى تذوب من تلقاء نفسها ، دون أن تعالج بالدَّلك والتطهير والإِنقاء ، وما يستتبعه ذلك من جهد مُضْنٍ وسهر طويل .

أعرف من مطالعاتى الكثيرة أنَّ هناك من الآثار ما يقرن المغفرة العامة بعمل قد يبدو فى ظاهره سهل الأداء ، كتساقط الذنوب مع قطرات ماء الوضوء مثلاً ، فلا يضطرب فهمك فى قيم الأعمال لهذه الظواهر .

وتأكدْ أنَّ الثواب الجزيل لا يسوقه الله عزَّ وجل فى عمل كالوضوء ، إلاَّ إذا صاحبه من عمق الإيمان وصدق الإِخلاص وجمال الاحتساب ما يجعل صاحبه أهلاً لأن يبذل النفس والنفيس فى سبيل الله تبارك وتعالى .

إنَّ الدين حقوق وواجبات ، وإنَّ الدنيا حقوق وواجبات .

وكل عقد ذى بال بين طرفين فهو ينطوى على حقوق وواجبات .

فأدِّ واجبك ، واشعر بعبئه على كاهلك ، ولا تلتمس منه المهارب .

فإذا وفيتَ بما عليك ، فانتظر حقَّك ، أواطلبه كاملاً فلن يعيبك أحد .

أمّا أن ينطلق المرء فى الدنيا متطلِّعاً شعاره : « **هل من مزيد** » من غير كفاية ولا استحقاق ، فهذه هى الكارثة .

ومثل هذا المسلك لا تُضمن به دنيا ، ولا يصح به دين .

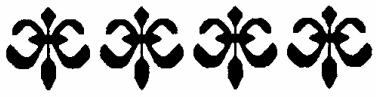

نقاء السر والعلانية

علاج الأمور بتغطية العيوب وتزويق المظاهر لا جدوى منه ولا خير فيه ، وكل ما يُحرزه هذا العلاج الخادع من رواج بين الناس أوتقدير خاطئ لن يغيِّر شيئاً من حقيقته الكريهة .

ومن هنا لم يحفِل الإسلام بالظواهر إذا كانت ستاراً لتشويه مَعيبٍ ، أونقص شائنٍ ، فما قيمة المظهر الحلو إذا كمن وراءه مخبر مُرٌّ؟!

من قديم غالَى العرب بجمال الحقيقة ، ولم يسمحوا للعنوان ـ وإن لم يكن كفأها ـ أن يخدش من قدرها ، فقال قائلهم :

إذا المرء لم يدنَسْ من اللؤم عرضُه فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل!!

على حين حقَّروا جمال الملامح إذا كانت النفس خبيثةً ، والخُلُق وضيعاً ، فقال الشاعر :

علي وجه مىٍّ مَسْحة من مَلاحة وتحت الثياب الخِزْيُ لو كان باديا
ألم تَرَ أنَّ الماء يكدر طعمُه وإن كان لونُ الماء أبيضَ صافيا؟

من أجل ذلك لم يعتدَّ الإسلام بتكمُّل الإنسان وتجمُّله إلاَّ إذا قام هذاالتسامى على نفس طيّبة ، وصحيفة نقيَّة ، وفؤاد زكىٍّ ، وضمير أُضىءَ من داخله ، فله سَنَاً يهدى صاحبه إلى الصراط المستقيم .

الجمال عمل حقيقى فى جوهر النفس ، يصقل معدنها ، ويُذهب كَدَرها ، ويرفع خصائصها ، ويعصمهامن مزالق الشر ، وينقذها من خواطر السوء ، ثم يبعثها فى الحياة كما تنبعث النَّسمة اللطيفة فى وقدة الصيف ، أوالشعاع الدافئ فى سَبْرَة الشتاء . . .

وعندما تبلغ النفس هذا المستوى ترتدُّ وساوس الشيطان عنها لأنها لا تجد مستقرّاً فيها ، بل لا تجد مدخلاً إليها .

إنَّ المرء يتجاوب مع معانى الخير والشر الطارئة عليه من الخارج ، كمايتجاوب جهاز الاستقبال مع الموجات الطوال أوالقصار التى تُرسَلُ إليه .

فبحسب وضعه وانضباط آلاته على جهة مُعيَّنة تكون طبيعة الإذاعة التى تصدر عنه .

كذلك الإنسان إذا طابت نفسه أوخبثت .

إنَّه فى الحالة الأولى يحيا فى جوٍّ من الخير تنحسر دونه موجات الإثم والعصيان ، وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله عن الشيطان :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾(١)

أما فى الحالة الأخرى فإنَّ المرء يستجيب لدوافع الجريمة التى تُلحُّ عليه ، وتسوقه إلى مصير كئيب ، وذلك قول الله عزَّ وجل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾(٢)

وقد طلب الله من عباده أن ينقُّوا سرائرهم من كل غِشٍّ ، وأن يحفظوا بواطنهم من كل كَدَر ، وأن يتحصَّنوا من كيد الشيطان بمضاعفة اليقظة وإخلاص العمل ، وصدق التوجُّه إليه جلّ شأنه . وأنزل سورة كاملة تدعو إلى الوقاية من الهواجس الوضيعة والخواطر المظلمة ، وتحفظ على المرء إشراقَ روحه ونقاوة جوهره . وإليك السورة كاملة :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾(٣)

هذه الاستعاذة تصوِّر لُجْأ المؤمن إلى الله يحتمى بقوته ويستجير بعزّته ، أن يُبقى عليه جمال نفسه غير مشوبٍ بوسوسة شيطان ، ولا معيبٍ بنَّية غدر أو خَتَلٍ أوشر لأحد من الناس .

(١) النحل : ٩٩ ـ ١٠٠ . (٢) مريم : ٨٣ ـ ٨٤ . (٣) سورة الناس .

والاستعاذة لا بدَّ معها من عمل .

فإذا قال الفلاّح : أعوذ بالله من القحط ، فما يُقبل منه ذلك إلاّ إذا كان يقوله وهو يحرث أرضه ، ويسقى زرعه ، ويتعهد جهوده حتى تبلغ نهايتها .

وإذا قال التلميذ : أعوذ بالله من السقوط ، فما يغنيه هذا إلاّ إذا أقبل على دروسه يستذكرها ، وعلومه يحصِّلها ، ومعارفه المشتتة يصل قاصيها بدانيها .

وإذا قال المسلم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فما يجديه هذا إلاَّ أن يكون مقاوماً لإغراء الشر ، مدافعاً للسيئاتِ التى تعرض له ، دائمَ التحليق مع معانى العبادة المفروضة عليه .

أمَّا أن يقول : أعوذ بالله وهو مُخْلدٌ إلى الأرض يتبع هواه ، فذلك ضَرْبٌ من التناقض ، لا ينطلى على عالِمِ الغيب والشهادة .

الإسلام فى عالم النفس جمال ينفى القبح ، ونظام يُطارد الفوضى .

والعظمة الحقيقة أن يستقر المرء فى دخيلة نفسه على حال من السكينة واليقين ييأس معها الشيطان أن يقذف فى رَوْعه بنكر .

انظر إلى الريح العاصف ، إنه يهب على الصحراء فيثير فيها الغبار .

ويهب على الماء فيغضِّن وجهه ، ويحرّك لججه .

ولكنه يُناوش الجبال الشمَّ فلا ينال منها منالاً .

والإنسان إذا كان أمره فرُطاً ، فإنَّ وساوس الشيطان تثير داخل نفسه زوابع لا ينتهى لها دوار ولا عكار .

أمَّا يوم يحزم أمره ، وينتظم الإيمان شئونه كلَّها ، فهيهات أن يهتز لهجمات الأبالسة .

وإصلاح النفس لا يتم بتجاهل عيوبها أو بإلقاء ستار عليها .

وتجميلها لا يكون بإقامة إهاب نَضِر تكمن وراءه شهوات غلاظ وطباعٌ فَجَّة .

الحسن المحبوب أن يستوى الظاهر والباطن فى نصاعة الصحيفة واستقامة السيرة .

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾(١)

(١) الأنعام : ١٢٠ .

ويجب أن نعلم بأن اكتمال الخصائص الإنسانية الفاضلة لا يتم طفْرةً ، ولا ينشأ اتِّفاقاً .

بل هو نتيجة سلسلة من الجهود المتلاحقة ، والبرامج المدروسة ، والإشراف الدقيق .

إنَّ الملكاتِ العظيمة تكمُن فى النفس كُمون الجمال والعذوبة والحلوى فى البذور والبراعم .

وكما تتضافر الحرارة والمياه وضروب العناية على استخراج أطايب الثمر من هذه الأصول المطويَّة الضامرة ، تتضافر عناصر البيئة الصالحة والتربية الراشدة على تفتيق المواهب العليا فى الإنسان ، وإنضاج ما يولد فجّاً فى أيام الطفولة وعُهود الحداثة الأولى ، حتى يبلغ مداه ، ويصل إلى مستواه .

وكثيراً ما تُعطب الثمار ويقلّ المحصول لفساد الجوّ الذى أحاط بالزروع .

وكثيراً ما تفسد الأجيال وتلتهم نضارتَها الآفات لقصور المربِّين والمعلِّمين عن تهيئة الجوِّ الذى تنبت فيه الناشئة نقيَّة الفطرة مصونة النَّماء .

❊❊❊❊

على أنَّ الله عزَّ وجل لا يهب المعرفة والحكمة إلاَّ إنساناً تعوَّد الإحسان فى شئونه كلِّها .

وتمكَّن من ضبط نفسه وإحكام أمره وتسديد خطاه .

ومشى على الصراط المستقيم لا تهزمه وساوس الشر ، ولا تردُّه عن غايته غمزات الشياطين .

يقول الله فى عبده الصالح يوسف :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١)

أى مثل ما آتى من أفضاله جزاءَ اكتمال رجولته وصدق نيته وشرف سيرته ، يُؤتى مَنْ يقتدون به فى إحسان العمل وإجمال السلوك .

والمربُّون الأوائل من علماء الإسلام لهم جهاد هائل فى قيادة النفوس إلى الحق ، وتخليصها من غرائز السوء التى تثقل بها إلى الحضيض .

(١) يوسف : ٢٢ .

وحِسُّهم فى هذه المجالات الراقية بلغ من الدقة شأواً لا نعرف له نظيراً .

وهم يُهيبون بالإنسان أن يرتفع ، ويناشدونه فى حرارة وإخلاص أن يقاوم ذرائع السقوط .

ويذكِّرونه بأنه يملك ـ من فطرته الأصيلة ـ ما يستطيع به الاستعلاء .

ومن الآداب التى ذكروها نلمح أنهم لا يعرفون التديُّن إلا يقظة فى العقل ، ونُبلاً فى العاطفة ، وسيادة لا تلحقها ضعة ، وتحليقاً لا يُدْنيه إسفاف .

لقد وضعوا طرائق[1] للرياضة النفسية تُعَدُّ من أبدع الدساتير فى عالم الأخلاق ، وهم يوصون مُدمنى الشهواتِ بملاحظة الأمور الآتية ، وهى كفيلة بتخليص أسير الهوى من براثن الشيطان عندما يغريه بمواقعة المعصية :

الأول : عزيمة حر يَغار لنفسه وعليها .

الثانى : جُرْعة صبر يحمل نفسه على مرارتها ساعة الإغراء .

الثالث : قوة نفس تشجِّعه على شرب تلك الجرعة . والشجاعة كلُّها صبر ساعة ، وخير العيش ما أدركه العبد بصبره .

الرابع : ملاحظة حسن موقع العاقبة ، والشفاء بتلك الجرعة .

الخامس : ملاحظته أنَّ ما ينشأ عن الهوى من ألمٍ أشدُّ ممّا يحسه المرء من لذَّة .

السادس : إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى . وفى قلوب عباده ، وهو خير وأنفع له من لذَّة مرافقة الهوى .

السابع : إيثار لذّة العفَّة وعزَّتها وحلاوتها على لذّة المعصية .

الثامن : فرحه بغلبة عدوّه ؛ وقهره له ، وردّه خائباً بغيظه وغمّه وهمه ؛ حيث لم ينل أمنيته .

التاسع : التفكير فى أنه لم يُخلق للهوى ، وإنما هُيِّئ لأمر عظيم لا يناله إلاّ بمعصية الهوى .

(١) الآداب المذكورة بعد للعلاّمة ابن القيم نقلاً عن التصوف الإسلامى لزكى مبارك .

العاشر : أن يكره لنفسه أن يكون الحيوانُ البهيمُ أحسنَ حالاً منه ؛ فإنَّ الحيوان يميّز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه فيؤثر النافع على الضار ، والإنسان أُعطِى العقل لهذا المعنى .

الحادى عشر : أن يسير بفكره فى عواقب الهوى ، فيتأمل كم أفاتت عليه معصيته من فضيلة ، وكم أوقعتْه فى رذيلة ، وكم أكلة منعت أكلات ، وكم من لذة فوَّتت لذّات ، وكم من شهوة كسرت جاهاً ، ونكَّست رأساً ، وقبَّحت ذِكْراً وأورثت ذمّاً ، وألزمت عاراً لا يغسله الماء ، غير أن عين الهوى عمياء .

الثانى عشر : أن يتصوَّر العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ، ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر ، ومافاته وما حصل له .

الثالث عشر : أن يتصوَّر ذلك فى حق غيره حقَّ التصوُّر ، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة ، فحكمُ الشىء حُكمُ نظيره .

الرابع عشر : أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشىء .

الخامس عشر : أن يأنف لنفسه من ذلِّ طاعة الهوى ، فإنَّه ما أطاع أحد هواه إلاَّ وجد فى نفسه ذلاً ، ولا يغتر بصَوْلة أتباع الهوى وكِبْرهم ، فهم أذلّ الناس بواطن ، قد جمعوا بين الكِبْر والذلّ .

السادس عشر : أن يوازن بين سلامة الدين والعِرْض والمال والجاه ، وبين نَيل اللذة المطلوبة ، فإنه لايجد بينهما نسبة البتة ، فليعلم أنَّه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا .

السابع عشر : أن يأنفَ لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه ، فإنَّ الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة ، وسقوط همة ، ومَيْلاً إلى هواه ، طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد . ومتى أحسَّ منه بقوة عزم وشرف نفس ، وعلو همة ، لم يطمع فيه إلا اختلاساً وسرقة .

الثامن عشر : أن يعلم أنَّ الهوى ما خالط شيئاً إلاَّ أفسده ، فإن وقع فى العلم أخرجه إلى البِدْعة والضلالة ، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء . وإن وقع فى الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة . وإن وقع فى الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحق . وإن وقع فى القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجَوْر . وإن وقع فى الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولِّى بهواه ويعزل بهواه . وإن وقع فى العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقُرْبة ، فما قارن الهوى شيئاً إلاَّ أفسده .

التاسع عشر : أن يعلم أنَّ الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه ، فإنَّه يطيف به ليعرف أين يدخل عليه حتى يفسد قلبه وأعماله ، فلا يجد مدخلاً إلا من باب الهوى ، فيسرى منه سَرَيان السُّمِّ فى الأعضاء .

العشرون : أن يتذكر أنَّ مخالفة الهوى تورث العبد قوة فى بدنه ، وقوة فى لسانه ، وأن أغزر الناس مروءة أشدُّهم مخالفة لهواه ، وأنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان ، فأيهما قوى على صاحبه طرده وتحكَّم ، وكان الحكم له . وأن الله سبحانه جعل الخطأ واتباع الهوى قَرِينَيْنْ ، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينَين .

الحادى والعشرون : أن يعرف أن الهوى تخليطٌ ومخالفته حِمْية ، وأنه يُخاف على مَنْ أفرط فى التخليط وجَانَبَ الحِمْيَة أن يصرعه داؤه . وأنَّ الهوى رِقٌّ فى القلب ، وغُلٌّ فى العنق ، وقيدٌ فى الرجل ، ومتابعه أسير ، فمن خالفه عَتَق من رقِّه وصار حرّاً ، وخلع الغلَّ من عنقه ، والقيد من رجله ، واستطاع مُسَايَرَةَ الصالحين .

بين الإيمان والإلحاد

لقيت نفراً من الشبَّان الملحدين ـ وهم للأسف منتشرون فى هذه الأيام انتشار الحَلْفاء والحشائش الضارة فى أرض لا صاحب لها ـ وحاورت بعضهم أبغى استكشاف ما فى نفسه ، فوجدت فكرتهم عن الله أشبه بفكرة اللقيط عن أبيه لا يعرفه ولا ينصفه!!

ووجدت جمهرتهم تفكر بهذا الإله عن تقليد أعمى غرور بليد . !!

فهم يحسبون أن العلم والإيمان ضدّان .

وإن الارتقاء الثقافى يصحبه حتماً إقصاء الدين من الطريق !!

ثم هم يَرَوْن أنفسهم ـ وإن لم يدرسوا شيئاً طائلاً عن علوم المادة ـ قد أصبحت لهم مكانة العلماء الذين فجَّروا الذرّة . فهم يصطنعون نظرتهم نفسها عن الحياة وخالقها كما تُحكى لهم لا كما هى على حقيقتها ، ومن ثَمَّ فهم يتبعون الأخسَّ الأخسَّ من قصور فى العلم وسوء فى التقليد !!

أعرف واحداً من هؤلاء ما نظر يوماً فى مرصد للأفلاك ، ولا دخل يوماً معملاً للكيمياء ، ولا غمس يده فى تجربة خطيرة من التجارب الكونية ، ومع هذه الجهالة فهو ملحد ، لأنه من العلماء ، والعلماء لا إيمان لهم إلا بالمادة .

ويمكنك أن تضم إلى هؤلاء الأغرار طائفة أنصاف المتعلِّمين .

وهى طائفة عرفت بعض الحق وجهلت بعضه الآخر .

ولم تتريث لتستكمل معرفتها ، بل أصدرت حكمها الحاسم على ضوء ما عرفت فقط .

وتصوَّر كيف تكون فوضى التقاضى لو أن القضاة أصدروا أحكامهم بعد الاستماع لنصف روايات الخصوم ونصف دفاع المحامين؟!

كذلك فعل أولئك الملحدون !! فقد أعلنوا كفرهم بعد أنصبة محدودة من الدراسة التى نقلَتْ إليهم بعض خصائص الأشياء ، وكشفت لهم بعض آفاق الوجود ،وحكَت لهم بعض فصول القصّة .

وهذا النوع من الكفر أعقد من صاحبه الأول لأنَّه أوغل فى باب الغرور والتقليد .

قال «فرانسيس بيكون» : (إنَّ قليلاً من الفلسفة يجنح بالعقل إلى الإلحاد ، ولكن التعمُّق فى الفلسفة خليق أن يعود بالمرء إلى الدين) .

وقال : «ديل كارنيجى» : (إنى لأذكر الأيام التى لم يكن للناس حديث فيها سوى التنافر بين العلم والدين ، ولكن هذا الجدال انتهى إلى غير رجعة) .

****

وأرانى مضطراً إلى تقرير حقيقة قد تغرب عن بال كثيرين ، هى أنّ هناك فارقاً بين الإيمان بالله كما وقر فى نفوس لفيف ضخم من المفكِّرين والعظماء ، وبين الانتساب إلى دين من الأديان المعروفة ـ خصوصاً فى الغرب .

فإنّ العلم المجرَّد هَدَى ألوف العلماء إلى الله ، ووقفهم أمام قدرته الرائعة مبهورين .

وكذلك فعل التفكير السليم عند كثير من الساسة والقادة .

بَيْدَ أنَّ أولئك الذين خالجهم إحساس قوى بأن للعالَم ربّاً جليلاً ، استراحوا إلى هذه المرحلة من مراحل الإيمان ، وكرهوا استكمال زادهم الروحى مما يعرفون من أديان .

وهم معذرون فى هذا التوقُّف إلى حدَّ ما ، ففى أى طريق يسيرون لطلب المزيد من معرفة الله ؟!

إنَّهم إن كانوا هوداً أونصارى لن يجدوا فى كنائسهم ولا فى صحائفهم ما يُغرى بتزيُّد من علوم الدين .

إنَّ ومضاتِ عقولهم أبانت لهم جانباً من جلال الألوهية المبدعة للوجود ، فَلِمَ يَزُجُّون بأنفسهم فى مشكلة لا تُسيغها عقولهم أبداً ؟ وهى أنَّ هذه الألوهية مكوَّنة مثلاً من ثلاثة أقانيم : أقنوم الآب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس؟!

إذن فليقفوا عندما عرفوا .

ولينشئوا سلوكهم فى الحياة على ما يطمئنون إلى صحته من تجارب وأفكار ، بعيداًعماَ يقوله أولئك الكُهَّان والرهبان .

وأذكر أن الكاهن كُلِّف بزيارة «الماريشال جورنج» فى أيامه الأخيرة ، بعد ما سجنه الحلفاء تمهيداً لشنقه ، أخذ يؤدى واجبه الدينى فى تعزية القائد الألمانى المقهور .

وما عساه يقوله راهب نصرانىٌ يؤمن بصلب عيسى فداء عن البشر وخطاياهم؟!

على أية حال لقد شرع يتكلم ، حتى قاطعه «جورنج» بقوله : يا أبتاه ، أنا مؤمن بالله ، وأعتقد أن المسيح رجل نبيل .

تلك عقيدة الرجل ، إنَّه هو وألوف من الساسة والقادة والعلماء والعظماء يؤمنون بالله ، وهذا حقٌّ ، ويؤمنون بأن المسيح إنسان نبيل وهذا حقٌّ .

أما ما عدا ذلك فلديهم صدود عن قبوله كما يُصَدُّ المرء عن طعام يعافه .

فليبتعد عنه فى صمت ، إذ لا ضرورة فى النَّعْى عليه ما دام ليس هناك إكراه على ازدراده .

وجمهرة العلماء والمفكِّرين فى العالم الصليبى على هذا الغرار .

أما العلماء اليهود فمعرفتهم بالله يصحبها شعور غامر بجنسهم المضطهد .

ولديهم بقايا من توحيد الله لم يشبها التثليث الذى اعتنقه النصارى .

وهؤلاء العلماء يعتقدون فى قرارة أنفسهم أن كنائس النصارى تقوم على عبادة رجل وُلِد لغير رشدة ، جاءت به أمه عن اتِّصال حرام!!

وأغلبهم يحمل من الإفك والضغينة ما يجعله شرًّا مستطيراً على الناس .

وأقلهم من هذَّبه العلم ، وكفكف ما فى طبعه من قسوة وحقد .

والمهم أنَّ الإيمان بالله بديع السموات والأرض لم يزل ـ كما كان ـ قائماً بالأنفس ، ولم يزل صوت الفطرة العالى ، وإن أخفتَه أحياناً ما يحيط به من إضافات ضالَّة .

وهذا الإيمان طرف الحقيقة التى بلغت تمامها فى الإسلام .

والرجال الذين تجيش مشاعرهم به ، هم فى تلك اللحظات المتألِّقة أقرب إلى الإسلام منهم إلى أى دين آخر .

وقد أخذ الله على هؤلاء أنهم يُحسنون معرفته فى لحظات شدَّتهم . . ثم ينسَونه عندما تدركهم العافية :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾(١)

والواقع أنّى استقصيت حالات كثيرة جداً لعلماء الغرب ومفكّريه ، فاستيقنتُ أنَّ فى نفوسهم إيماناً حسناً ، وأنَّ معرفتهم بالله تجرى فى نسق أبعد من ضيق اليهودية وتعقيد النصرانية وأدنى إلى سماحة الإسلام وبساطته .

ولكن هؤلاء يكرهون الإسلام والمسلمين مع ذلك . !!

وهم معذرون فى هذه الكراهية إلى حَدٍّ ما ، فأهلُ الإسلام حِجابٌ غليظٌ دون تعاليمه .

وتقهقرهم البالغ فى كل ميدان يصدُّ عامة الناس عن إحسان الظنِّ به .

ورسالة محمد نفسها ـ من الناحية العلمية البحت ـ لم تُعرض عرضاً يُرى الناس جوهرها كما جاء من عند الله . !!

ولو أنها عُرِضَتْ كذلك لوجدت تجاوباً هائلاً مع الخاصَّة الذين يبنون إيمانهم على منطق العقل ، ويحررونه من مواريث الخرافة ، ولوجدتْ تجاوباً كذلك مع العامة الظِّماء إلى ينابيعَ ثرَّةٍ بضروب التوجيهات والوصايا .

وذاك كله ما احتشد احتشاداً فى القرآن الكريم وسنة محمد ﷺ .

❊❊❊❊

إنَّ الألوف التى وهَت صِلتُها بالدين فى أقطار الغرب ، وتجهَّمت للبِيَع والكنائس ليست كافرة بالله ، ولا خارجة على سنن الفطرة ما دامت تتجه إليه وفق فهمها البسيط .

إنها تودّ من أعماقها لو توثقت صلاتها بالله عن طريق صحيح تشعر فيه بالراحة والقرار .

إنَّ المفتاح الذى أُديرفيها لم تركَّب أسنانه بطريقة تتواءم مع طبيعة القفل المغلق ، فبقى الباب مقفلاً لأن المفتاح المجلوب لم يصنع شيئاً .

---

(١) يونس :٢٢ ـ ٢٣ .

ولو أنَّ هـذه القلوب العطاش إلى اليقين والسكينة وجدت مفتاحها الأصيل لانفرج الباب الموصد ، ولنهلت هذه الأفئدة المحرومة من نِطاف الإيمان الصافى ما يروى غليلها .

على أن أصحاب النفوس الكبيرة لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام أزمة «الحقّ» التى تجتاح بلادهم . فبحثوا عن الله وحده ، ومدُّوا حبالهم إليه وحده ، ولم يرَوْا فى غيره إلا بشراً مثلهم ولو كان عيسى نفسه .

وبذلك تأسَّس إيمان صحيح ـ وإن يك محدوداً ـ بعيداً عن الكهانات وطقوسها وتعاويذها وتماثيلها

وهذا الإيمان لا يسمى إلحاداً وإن لم يَدِنْ بالتوراة والإنجيل والقرآن ، لأنه يجهل الأخير ، أويعرفه على غير وجهه ، ولأن الأوّلَين لا ينسجمان مع طاقته العقلية والنفسية الواسعة .

وعلى هذاالأساس الذى مهّدناه نتمشّى مع «ديل كارنيجى» وهو يقول :

(لقيت «هنرى فورد» قبل وفاته ، فتوقَّعت أن أرى عليه سيماء رجل منهك القوى من فرط الجهد الذى بذله فى إنشاء مؤسسة تجارية من أضخم المؤسسات فى العالم ، غير أنى فوجئت حين وجدته على درجة كبيرة من الرزانة والهدوء ، وكأنه آية فى الاتزان والطمأنينة .

برغم بلوغه الثامنة والسبعين من عمره .

فلما سألته : هل عانَى من القلق شيئاً ؟ أجاب : كلاَّ ، فإنِّى أعتقد أن الله ـ سبحانه ـ قدير على تصريف الأمور ، وأنَّه ـ تعالى ـ فى غير حاجة إلى نصيحة منى ، ولهذا فأنا أترك له تصريف أمورى بحكمته جلَّ شأنه ، فعلام إذن يتولانى القلق؟!) .

هل كان «فورد» زميلاً لابن عطاء الله السكندرى فى هذا المنطق الممتلئ بالتسليم والثقة فيما تجيء به الأقدار؟!

إن كان المستر «فورد» لم يعرف ابن عطاء الله ولم يأخذ عنه ، فإليك خلاصة لكلام هـذا العالم المسلم تلمح فيه قوة الشبه بين المنطقين ، على تباعد الديار والأعصار!!

قال ابن عطاء الله يحض على التسليم لله ، ويحصى آداب التجرد[1] :

الأول : علمك بسابق تدبير الله فيك ، وذلك أن تعلم أنَّ الله كان لك قبل أن تكون لنفسك .

فكما كان لك مدبِّراً قبل أن تكون ولا شيء من تدبيرك معه ، كذلك هو سبحانه مدبر لك بعد وجودك .

فكُنْ كما كنت له ، يَكُنْ لك كما كان لك .

الثانى : أن تعلم أنَّ التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها .

الثالث : علمك بأن القَدَر لا يجرى على حسب تدبيرك ، بل أكثر ما يكون هو ما لا تدبِّر ، وأقلُّ ما يكون ما أنت له مدبِّر .

الرابع : علمك بأن الله تعالى هو المتولِّى لتدبير مملكته ، علوها وسفلها ، وغيبها وشهادتها ، وكما سلَّمت له تدبيره فى عرشه وكرسيه وسماواته وأرضه ، فسلِّم له تدبيره فى وجودك بين هذه العوالم .

وسيثبُ إلى الذهن حتماً بعد الاستماع إلى هذه النصائح أن الإنسان لكى يتم يقينه يجب أن يتجرّد من حَوْله وطَوْله وأن ينخلع من قواه وأن يهمل الأسباب وأن ينتظر من تدبير الله بعدئذٍ أن يقضى له ما يشتهى . وهذا خطأ محضٌ ، وما إليه قصد ابن عطاء الله ، ولا به عملٍ «مستر فورد» .

فإنَّ شعور الإنسان بَحوْله ضرورة .

ونهوضه للأسباب المعتادة حقٌّ .

ولذلك يستدرك ابن عطاء الله بعد كلامه السابق فيقول : (**إن التسبُّب لا ينافى التوكُّل**) .

---

(١) عن التصوف الإسلامى .

انظر إلى قوله ﷺ : «**لو توكَّلتم على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[1] ، تراه يدلُّ الأمرُ بالتوكل ، لا على نفى الأسباب ، بل إنه يدلُّ على إتيانها بقوله : تغدو ، وتروح!! فقد أثبت لها غُدوّاً ورواحاً .

وهذا سببها الذى تحيا به وتعيش عليه .

ونقول نحن : إن الإسلام يرفض كل تشكيك فى حرية الإرادة .

ويرد بعنف كل توهين للطاقة العظيمة التى مُنِحَها الإنسان كيما يكدح فى هذه الدنيا ، ويرتقب نتائج كدحه .

غير أنَّنا عندما ننظر إلى شؤوننا على ضوء الواقع لن يفوتَنا أن نلحظَ ضيقَ الدائرة التى نعمل فيها بقُدَرنا وإرادتنا بالقياس إلى الدائرة الواسعة التى تعمل فيها القدرة العليا ، والإرادة العليا .

والأسباب التى نتعلق بها محكومة بمجالات رَحْبة لاسلطان لنا عليها فى أغلب الأحيان .

ومن ثَمَّ فلنكفكفْ غرورنا بما نملك ، ولا نحاول بنفخ الفم أن نغالب عصف الرياح .

ذلك ما ينشده دعاة التجريد ، أن تستمسك بالأسباب ، وأن تستريح إلى ما يصنع الله بعد .

على أننا مضطرون إلى أن نلقى هذه النصائح بقليل أوكثير من الحذر .

فإن كلمة «خفِّف السير» قد تقال لسائق عَجِل يندفع إلى الأمام بسرعة ربما تودى به .

أما إذا وُجِّهت الكلمة لقاعد يلعب ، أوماشٍ مُتَمهِّل فهى لغوٌ قبيحٌ .

والأمريكان المسعورون وراء حطام الدنيا يُقنطهم الفشل ، ويُبطرهم الظفر ، محتاجون إلى كلام «فورد» و«ابن عطاء الله» وغيرهم .

أما الوانون المتراخون من أهل الشرق فلهم كلام آخر أحسن سياقاً ، وأفعل أثراً .

وأقطار الشرق الإسلامى الآن مزيج من الصِّنفين المتناقضين .

---

(١) تيسير الوصول .

يوجد فيهم من يقال له : اعمل لتحيا ، ومن يقال له اهدأ لتحيا .

وإلى البكَّائين على ما فات ، المتحيِّرين وراء تحقيق المعجزات ، الدائرين حول محور من أنفسهم يصارعون المُنَى وتصارعهم دون الانتهاء إلى قرار . إلى هؤلاء نوجه كلمة «وليم جيمس» : «إنَّ بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم ، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه ـ سبحانه وتعالى ـ تحققت أمنياتنا وآمالنا كلها» .

أما القاعدون فى ظلام الركون إلى الأقدار فإنهم يُضرَبون ـ باسم الله ـ كى ينهضوا إلى ميدان العمل .

ومن الناس من يحترم الإيمان ، ويسعى لإشاعته فى المجتمعات ، لا لأن الإيمان حقٌّ ، بل لأن آثاره فى النفوس والجماعات مستحبَّةٌ .

ولذلك يقول : لو لم يكن هناك إله لوجب أن نجعل للناس إلهاً يطلبون رضاه ، ويخافون عذابه .

فالإيمان عند هؤلاء ضرورة اجتماعية لحفظ الأمن وترويض العوام .

وهم لذلك لا يكترثون لِكُنْهِ هذا الإيمان ، ولا لمتعلقاته .

ليكن مايكون ما دام يؤدى نتائجه القريبة .

وهذا تفكير سخيف ، وإزراء بحقيقة الدين وقيمته ، بل استهانة بالحقيقة نفسها وبأقدار عارفيها .

فإنَّ الاعتراف بوجود الله يجب أن يكون خضوعَ العقل والفؤاد للأدلة التى استبانت صحتها ، ولا محيص عن المصير إليها والتسليم بها .

أمَّا إذا تظاهرت الدلائل على أنَّه لا إله هنالك ، فإنَّ ربط العامة أوالخاصة بوَهَم كبير يُعَدُّ خدعة سمجة .

ونحن نجلُّ الحياة والأحياء عن هذا اللون من الخداع ، ونرى أن يفتح البشرُ أعينَهم على الحق وحده .

فالإيمان بالله الواحد ليس لعبة سياسية ، أوتشريعاً استثنائياً .

كلا ، إنَّه الحقيقة التى ضلَّ عنها الغافلون ، أوالمستغلُّون .

والنور الذى أغلقت دونه أجفان العميان .

أما الرجال الذين رُزقوا صفاء الفطرة ، ونقاء الفكر ، فلن يتيهوا عن الله أبداً .

إنَّ هذا الإيمان الوثيق معدن قلَّما تخلو منه نفس عظيمة .

وهو على اختلاف مراتبه وألوانه السناد الروحى الأمين الذى يهرع إليه فى الشدائد ويُعتَمد عليه فى حمل الأعباء وملاقاة النُّوَب .

وربما سبق إلى الوهم أن أغلب ذوى الأسماء اللامعة - أعنى فى ميادين الجد - قليلو الذخر من هذا العنصر النفيس .

وقد يروِّج لهذه الفرية بعض الصحافيين الذين لا دين لهم .

وذلك باطل . فكثير جداً من كبار الرجال لهم فى الله عقيدة صلبة ، وإن شاب صلابتها تصوُّر ساذج أوخطأ مشهور على مابيَّنا آنفاً .

قال «ديل كارنيجى» : (أعرف رجالاً ينظرون إلى الدين نظرتهم إلى شىء مقصور على النساء والأطفال والوعّاظ ، ويتباهَوْن بأنهم «رجال» يسعهم أن يخوضوا المعارك بلا سند ولا معين .

فما أشدّ الدهشة التى تتولاَّهم حين يعلمون أن معظم «الرجال» ـ أعنى الأبطال المشهورين ـ يضرعون إلى الله كل يوم أن يؤازرهم ويعاونهم .

خذ مثلاً البطل «جاك دمبسى» . لقد أخبرنى بأنه لا يأوى إلى مضجعه قبل أن يتلو صلواته ، ولا يتناول طعاماً حتى يحمد الله الذى وهبه إياه ، وأنه لا يفتأ يردِّد الصلواتِ والدعواتِ فى أثناء تدرُّبه على الملاكمة ، وقبل كل مباراة يخوضها .

وحدّثنى «أدوارد استيتنيوس» المدير الأعلى لشركة جنرال موتورز و«وزير خارجية أمريكا الأسبق» أنَّه كان يصلِّى ويبتهل إلى الله أن يهبه الحكمة والسداد ليلاً ونهاراً .

وعندما كان البطل «أيزنهاور» فى طريقه إلى (أوروبا) طائراً ليتولَّى قيادة جيوش الحلفاء فى الحرب الأخيرة ، كان الشىء الوحيد الذى اصطحبه معه هو الكتاب المقدَّس!!

وقال لى البطل الجنرال «مارك لارك» . إنه كان يقرأ الكتاب المقدّس خلال سنى الحرب كل يوم ، ثم يركع على ركبتيه ويدعو الله!!

لقد أدرك هؤلاء الأبطال أنَّهم ليسوا وحدهم فى الحياة ، وأنهم فقراء إلى هذا الإله القادر الرحيم كى يصحبهم فى دنياهم بتوفيقه ورعايته ، كما تفضَّل عليهم ـ وهم فى عالم الغيب ـ بنعمة الإيجاد والخلق) .

❊❊❊❊

وحقيق بالناس أن يفزعوا إلى الله كلما حزبتهم شدة ، أو رابتهم أزمة ، فَمَنْ غيره ـ جلَّ شأنه ـ يستطيع سدّ خلَّتهم ، وإشباع نهمتهم ، وردَّ طمأنينتهم :

كُلّهم سائلٌ ، وأنت مجيبٌ تلك نعماك ، ما لها من نَفَادِ

بَيْدَ أنَّه من الحق كذلك ألاَّ نجهل هذا الذى نسأله ، وألاَّ نتقرّب إليه بأسلوب يمقته ، وألاّ ننسب إليه عن خطأ أو عمد ماهو برىء منه .

كان المشركون قديماً يعبِّرون عن عاطفتهم نحو الله بهذه الكلمات :

لبَّيْك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك ، إلاّ شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك!!

فجاء الإسلام ليصحح هذا التعبير ، ويُغيِّر الفهم الذى أوحى به .

مع استبقاء العاطفة الأصيلة التى تربط البشر بخالقهم الأعلى ، وتسوقهم إلى ساحته راغبين راهبين ، فغيَّر العبارة على النحو الآتى : لبيَّك اللهم لبيَّك ، لبيَّك لا شريك لك لبيَّك . إنَّ الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريكَ لك!!

إنَّ تصحيح الاعتقاد والعبادة هو الهدف الأوّل للإسلام .

فقد كانت الأمم الأولى تعرف الله معرفة يشوبها القصور والخطأ :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾(١)

فلم يكن بدٌّ من إزاحة هذا الجهل ، ودحض تلك الشبهات .

والمؤسف أن النصارى يتجهون إلى الله كما رأيت ، ولكنَّهم يجعلون معه إلهاً آخر ، أوإلهين آخرَين!!

ومن ثَمَّ تضطرب وجهتهم وتجور أدعيتهم .

ويسألون الله وهم يقصدون عيسى ، أويسألون عيسى وهم يقصدون الله .

(١) يوسف : ١٠٦ .

مع أنَّ عيسى ومحمداً وغيرَهم من المرسلين ليسوا إلا بشراً ضِعافاً يفتقرون إلى فضل الله ، ويقفون ببابه وهم راجون ثوابه وخاشون عقابه .

إنَّنا نكره الإلحاد الذى جعل من الأجيال الحاضرة قطعاناً تحيا فى العالمين ، وهى متنكِّرة لربِّ العالمين .

وكلُّ مانبغى أن يحل مكان هذا الإلحاد المُعْتم إيمان ينهض على الصواب ، ويتألّق فيه نور الحق .

والتوحيد الذى يُلحُّ الإسلام فى تقريره ، ويحض البشر على فهمه والأخذ به ليس بدعة جاء بها النبى محمد ، كلا ، إنه توكيد الدعوة الأولى التى هتف بها الأنبياء أجمعون ، وإبراز الأصل الذى قامت عليه دياناتهم كلُّها .

والكتب والرسائل التى ماتزال بين أيدى النصارى إلى يوم الناس هذا تشير إلى هذه الحقيقة إشارة تنطبق مع آيات القرآن العزيز أتم الانطباق .

ففى سفر «التثنية» إصحاح ٥ عدد ٣٦ : «لتعلمْ أنَّ الربّ هو الإله ليس آخر سواه» وذلك كقول الله فى كتابه : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾(١)

وجاء فى هذا السِّفْر : «ردِّد فى قلبك أنَّ الرب هو الإله فى السماء من فوق وفى الأرض من أسفل» ، وهذا كقول الله فى كتابه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾(٢)

وجاء فى هذا السِّفْر أيضاً : «أسمع يا إسرائيل ، الربُّ إلهنا ربٌّ واحد» . وإسرائيل هو يعقوب الذى جمع أولاده وهو يحتضر ليستوثق من بقائهم على التوحيد :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾(٣)

(١) محمد : ١٩ . (٢) الزخرف : ٨٤ ـ ٨٥ . (٣) البقرة : ١٣٣ .

وجاء فى سفر أشعياء ، إصحاح ٥ : ٤٥ «**أنا الربُّ وليس آخر ، لا إله سواى**» ، وجاء فيه أيضاً :«أنا الأول ، وأنا الآخر ، ولا إله غيرى» ، وهـذا كقول الله :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾(١)

وجاء فيه أيضاً : «لأنى أنا الله وليس لى شبيه» ، وذلك كقول الله فى كتابه :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾(٢)

ولم يَخْلُ العهد الجديد من بقايا حقٍّ يُعَلِّقُ العباد بباريهم الأعلى ، وتقفهم فى مجال العبودية المحضة على اختلاف ألسنتهم وألوانهم .

لا يفضل أحد الآخر إلا بمدى مايُكنُّه من إخلاص ، ويتزلّف به من قُربٍ إلى الله الواحد القهّار .

ولقلّة التنزيه وفشوّ الجهل بالله كانت المشاعر العامرة بالتوحيد المطهّرة من أدران الشرك أحبَّ شىء إلى الله .

وكلما ظهرت فى الدعاء آثارٌ لإجلال الله والاعتراف بعظمته المفردة وكماله المطلق ، كان ذلك أقرب إلى القبول وأدنى إلى الاستجابة .

رُوى أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : «**اللهمَّ إنِّى أسألك بأنِّى أشهد أنَّك أنت الله لا إله إلاّ أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**» . **فقال النبى للرجل : «لقد دَعَوْت الله بالاسم الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب»**(٣) .

---

(١) الحديد : ١ - ٣ . (٢) الشورى : ١١ .
(٣) الترمذى .

أجـل ، ألا تـرى الرجـل قد اضـطرمت فى نفـسه عـقـيـدة ضلَّت عنها ألوف مـولَّفـة من الناس؟ أين من التنزيه الذى يمـلأ فؤاده شرك جـماهير تحـسب أن لله ابناً وتحسب أن له صاحبة؟!

وكذلك شجَّع رسول الله كل دعوة ينضح فيها ما يجب لله من تمجيد ، وما يستحقه تبارك وتعالى من ثناء وحمد ، وما يُشعِر بفقر العالم كله إليه وقيامه به ، مثل : «**يابديع السـمـوات والأرض ، يا ذا الجـلال والإكـرام . يا أرحم الراحـمـين لا إله إلاّ أنتَ سبحانكَ إنى كنتُ من الظالمين ، يا حىًّ يا قيُّوم**» .

ومن الأدعية التى يترقرق فيها رُواء الإعزاز والإخلاص ما رُوى : «اللهمَّ إنِّى أسألك بمعاقد العزِّ من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، واسمك الأعظم ، وجَدِّك الأعلى ، وكلماتك التامة» .

وما روى أيضاً : «اللهمَّ إنِّى أسألكَ باسمك الطاهر الطِّيب المبارك الأحبِّ إليكَ ، الذى إذا دُعيب به أجبتَ ، وإذا سئلتَ به أعطيتَ ، وإذا استُرحمت به رحمت ، وإذا استُفرجت به فرَّجت . .» .

وهذه الأدعية باب واسع ، يرجع إليه فى مظانِّه من شاء الاستزادة .

هل ندع نفوس الناس تنساب فى فجاج الحياة وحدها ، وتتوغَّل فى متاهاتها ، دون مولى يرعاها ، ودون نصير يعضدها؟

إنَّ الإِنسان مهما ادّعى القوة ضعيف .

ومهما انفرد بنفسه فسوف تكتنفه الوحشة والحَيْرة .

وما أكـثر المسـارب والمتشـعـبات التى يصـل المـرءُ إليـها ثم لا يدرى : أيُّها يأخـذ ؟ وأيُّهـا يتـرك ؟

وهو إنْ ضلَّ الطريق يوماً فى معضلة واجهته فقد يظل يتعسّف السير أياماً أوأعواماً من غير أن يبلغ غاية يستقر عندها .

لأنه يضرب ابتداءً على غير هدى؟!

ما أفقرنا إلى من يلهمنا الصواب ، ويهدينا إلى الحقّ كلما اشتبهت علينا الأمور .

والإنسان مُعَرَّض للآلام من كل ناحية فيه ، إنه كمدينة مفتوحة يمكن أن تُدَكّ فى أى وقت ، ومن أية جهةٍ .

والمرء إذا نظر إلى بدنه وجد أن كل ذرَّة فيه يمكن أن تكون منفذاً لمرض عُضال يبعثه على الأنين العالى .

وإذا نظر إلى شأنه كلِّه وجد أنَّ أى أمرٍ من أموره يمكن أن ينقلب عليه ليجرَّ وراءه الشقاء الطويل .

ما أفقرنا إلى استدامة النعمة ، واتّقاء النِّقمة ، والاسترواح فى الحياة إلى ما يجعل الله فى الحياة من يُسر وبركة وسكينة!!

إنَّ هذا كلَّه هو ما تكفله الصلاة للمؤمن .

إنَّ الإسلام نظَّم وقفات كريمة يناجى الإنسان فيها ربَّه عدة مرات فى اليوم الواحد .

فى هذه الوقفات يكلِّم الإنسان ربَّه ، فيعترف أولاً بحمده ومجده ، ثم يسأله بعد ذلك هداية تحفُّ النعمة ويجانبها السخط .

فى هذه الوقفات يقف الإنسان أمام ربِّه يستعينه ويسترضيه .

يقف أمام ذى العلم الشامل ليكمِّل له قصور معرفته .

وأمام ذى القدرة الهائلة ليكمِّل له ما يعجز عنه حتمًا لضعف قواه .

يقول الله تعالى ـ فى حديث قدسى ـ : « **قسمتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين . فإذا قال : الحمد لله ربّ العالمين ، قال : حمدنى عبدى . وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أثنَى علىَّ عبدى ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجّدنى عبدى ، وإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال الله : هذا عهد بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : اهدِنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، قال الله : لعبدى ما سأل**»(١) .

(١) أحمد .

إنَّ الركض فى ميادين الحياة بقدر ما يجلِّل البدن بالغبار والعرق يجلِّل الروح بالغيوم والأكدار .

والمرء - إثر كل شَوْط طويل - يحتاج إلى ساعة يلمّ فيها شَعَثه ، ويعيد النظافة والنظام إلى ما تعكَّر وانتكث من شأنه كله .

وليست الصلاة إلاَّ لحظات لاسترجاع هذا الكمال المفقود أوالمنشود .

عن أبى سعيد أنه سمع النبى ﷺ يقول : «**الصلوات الخمس كفّارة لما بينها . أرأيت لو أنَّ رجلا كان يعمل ، وكان بين منزله وبين معمله خمسة أنهار ، فإذا أتى معمله عمل فيه ماشاء الله فأصابه الوسخ أو العرق ، فكلما مرَّ بنهر اغتسل ، ما كان ذلك يبقى من درنه؟**

فكذلك الصلاة ، كلما عمل خطيئة فدعا واستغفر غُفر له ماكان قبلها»[1] .

وآهٍ من سُعار المادّة الذى يلفح الوجه فى معركة الخبز ! .

إن البشر يقتحمون هذه الساحة المائجة وغرائز الأَثَرة أيقظُ ما تكون فى دمائهم ! .

إنَّ حوائجهم وحوائج أسرهم وأرحامهم هى التى يَرَوْن فى أثناء هذا السباق الطويل .

أما التراحم والإيثار والبرُّ فقلَّمها تبدو صورها النبيلة لأعينهم .

وترك الناس تصرعهم هذه المشبوبة قتلٌ لكل ما فى الإنسانية من فضائل .

فلا عجب إذا شرع الله الصلاة للناس كيما تنجيهم من هذا السعير بين الحين والحين . عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن لله مَلَكاً ينادى عند كل صلاة : يابنى آدم ، قُوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها فأطفئوها**»[2] .

وفى رواية : «**تحترقون تحترقون ، فإذا صلَّيتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صلَّيتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صلَّيتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صلَّيتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يُكتب عليكم حتى تستيقظوا**»[3] .

---

(١) البراز .

(٢) الطبرانى .

(٣) الطبرانى .

وفى الحديث تصوير لما يواقعه العامة من صغائر وذنوب فى معايشهم المضطرمة المتشابكة ، وما تلطفه الصلوات وتُرطِّبه من هذه الجباه والجنوب .

الصلاة تَسَام يرفع المرء إلى السماء كلَّما أخلد إلى الأرض ، ويصله بالله كلَّما قطعته عنه أسباب الغفلة والذهول .

ولننقل هنا ما رواه «ديل كارنيجى» عن الدكتور «ألكسيس كاريل» مؤلف كتاب «الإنسان ذلك المجهول» وأحد الحائزين على جائزة «نوبل» قال : (لعل الصلاة هى أعظم طاقة مولِّدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا . !!

وقد رأيت - بوصفى طبيباً - كثيراً من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم ، فلما رفع الطبّ يديه عجزاً وتسليماً تدخَّلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم .

إنَّ الصلاة كمعدن «الراديوم» مصدر للإشعاع ، ومولِّد ذاتى للنشاط .

وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود حين يخاطبون «القوة» التى لا يفنَى نشاطها .

إنَّنا نربط أنفسنا - حين نصلى - بالقوة العظمى التى تهيمن على الكون ، ونسألها ضارعين أن تمنحنا قَبَساً منها نستعين به على معاناة الحياة ، بل إنَّ الضَّراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ، ولن تجد أحداً ضرع إلى الله مرة إلاَّ عادت عليه هذه الضراعة بأحسن النتائج) .

وهذا الكلام هو عندى خير تفسير لقول الله عزَّ وجلّ :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(١)

أىّ خير يكسبه الإنسان إذا استيقظ من منامه فكان أول تفكيره الاتصال بربّه ، والاستعانة به ، والاستمداد منه؟!

إنَّه ينال ضماناً من السماء أن يقضى سحابة نهاره وهو فى حِرْز منيع !!

أجل ؛ لقد أصبح فأرضَى ربّه ولاذ به ، وطلب حمايته .

والله عزَّ وجل أحقُّ من يعطى الأمانَ من استأمنه ، وأن يمنح جوارَه من استجار به .

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٢) مسلم .

وفى الحديث : «**من صلَّى الصبح فهو فى ذمَّة الله ، فلا يطلبكم الله من ذمته بشىء ، فإنَّه من يطلبه من ذمته بشىء يدركه ثم يَكُبُّه على وجهه فى نار جهنم**»[٢] .

هذا إعلان من الله للناس أن يكرموا رجلاً بدأ يومه بالصلاة ، ثم غدا إلى عمل ، فغدت معه كلاءة الله ورعايته .

وفى روايةعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : «**من صلَّى الصبح فهو فى ذمّة الله تبارك وتعالى ، فلا تُخفروا الله تبارك وتعالى فى ذمته ، فإنَّه من أخفر ذمته طلبه الله حتى يَكُبَّه على وجهه**» .

وقيل : إنَّ الحجاج أمر سالم بن عبدالله بقتل رجل ، فقال سالم للرجل : أصليتَ الصبح ؟ فقال الرجل : نعم ؟ قال : فانطلق ، فقال له الحجاج : ما منعك من قتله ؟ فقال له سالم : حدَّثنى أبى أنه سمع رسول الله يقول : «**من صلَّى الصبح كان فى جوار الله يومه**» .

فكرهتُ أن أقتل رجلاً قد أجاره الله[١]

والناظر فى بعض العبارات التى تصوِّر صلة الله عزَّ وجل بعباده المخلصين له ، يجد أن الله لم يدخلهم فى جواره ، بل إنَّه نزَّلهم منزلة نفسه ، وجعل إيذاءهم عدواناً عليه ـ تقدّست ذاته ـ .

ومن ثَمَّ يقول فى حديثه القدسى : «**من عادَى لى وليّاً فقد آذنته بحرب**»[٢] .

ومـوالات الله تعنى مزيداً من التعلُّق به واللّجأ إليه بالصلاة ، وبغيرها من الفرائض والنوافل .

وقد يبلغ هذا التكريم الإلهى لمن يرتبطون بالله فى حياتهم وشؤونهم كلِّها أن الله يلحقهم به ، وينسبهم إليه ، ويجعل معاملتهم كأنها معاملة له هو .

قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ الله عزَّ وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضتُ فَلِمَ لَمْ تعُدْنى!! قال : يارب كيف أعودكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! قال : ما علمت أنَّ عبدى فلاناً مرض فلم تعدْه ؟ أو ما علمتَ أنكَ لو عُدْتَه لوجدتنى عنده . . يا ابن آدم**

---

(١) أحمد .
(٢) البخارى .
(٣) مسلم .

استطعمتُك فلم تطعمنى؟ قال : يارب كيف أطعمك وأنتَ ربّ العالمين؟! قال : أمَا علمت أنه استطعمكَ عبدى فلان فلم تطعمه؟! أما علمتَ أنك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندى . . ابن آدم استسقيتُك فلم تسقنى؟! قال يا ربِّ كيف أسقيكَ وأنت ربُّ العالمين؟! قال : استسقاكَ عبدى فُلان فلم تسقه ، أمَا إنَّك لو سقيتَه وجدت ذلك عندى»(١) .

وهذا الحوار العجيب بيِّن الدلالة فى مدى إعزاز الله لقوم من الناس لا تزال صِلاتهم بالله تستوثق وتتوكَّد حتى يعدَّ الله كرامتهم من كرامته ومكانتهم من مكانته .

على أنّ أىَّ إنسان مهما ارتقت عند الله درجته فهو ليس بمنجاة من متاعب الجهاد وأكدار الحياة الحافلة بأفانين من الغُشْم والجحود .

أترى عمر بن الخطاب أعدل حاكم عرفته الدنيا كيف قُتِل مُتهَّماً بظلم؟

إن كـان الرجل الكبير قد أصابه ما أصاب ، فإن عيادته فى جراحته القاتلة كأنها عيادة لله نفسه .

وكذلك ما أصاب المسلمين الأولين من أزمات الحصار الخانق الذى ضربه المشركون عليهم ، وعرَّضوهم فيه لألوان الجوع والعطش ، وألجأوهم أن يأكلوا ورق الشجر حتى تقرَّحت أشداقهم .

إنَّه ليس جوع تَسَوُّل كما يفهم الحمقى ، ولكن جوع كفاح وتضحية .

قد تقول : فمافائدة حسن الصلة بالله وسَعَة الرعاية التى يبسطها على عباده المحبين وأوليائه المقرَّبين إذا كانوا لم ينجوا من براثن الظلم ، ولم يفلتوا من حبائل الغدر؟!

وأين سياج العناية العليا حول عمر وعثمان وعلىّ الذين قتلوا شرَّ قتلة؟ وهذا التساؤل لا يقدح فيما قررنا آنفاً .

وكل ما يوجبه أن نصحِّح مفاهيم الحياة الكبيرة فى أذهان الناس حتى لا يضلّوا فى فهم ظواهرها .

ما رأىُ أولئك المتسائلين إذا عرفوا أنَّ عمر كان يدعو قبل وفاته بأيام أن يرزقه الله الاستشهاد؟ وأن تكون شهادته لا فى الجبهة الشرقية التى يدور القتال فيها مع فارس ، ولا فى غيرها من جبهات القتال الأخرى مع الرومان؟ لا . . بل فى دار الهجرة ، أى فى المدينة نفسها . .

لكأن الرجل كان يحدِّد الطريقة التى يؤثر أن تجىء بها منيَّته!!

---

(١) مسلم .

إنَّ عمر وأمثاله من كبار الرجال يعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا ، ويعرفون الوظيفة المضنية التى يقوم بها أولو العزم فى غرس الإيمان والخلق والعدالة ، وفى خلع الحشائش السامة والعوسج الشائك الذى ينتشر فى تربة هذه الأرض البائسة ويملؤها بالمظالم والظلمات .

إنَّ هؤلاء الرجال يعرفون وظائفهم وينهضون بأثقالها فى طمأنينة وسرور .

وما يلقَوْنه فى حياتهم من حرمان لا يؤودهم .

وما يختم حياتهم من مَصارع لا يُفزعهم .

بل قد يكون أمنيَّتهم على نحو ما دعا عمر بن الخطاب ، ومثل ما روى عن سقراط بعد الحكم عليه بالقتل مسموماً :

سقراط أعطى الكأس ـ وهى منيَّة ـ شفَتْى محب يشتهى التقبيلا

يجب أن نوضِّح أطراف هذا القدر الذى يبدو فاجعاً ثقيلاً ، فنؤكد أنّه لا يدلُّ على أية شارة من شارات السَّخَط أوالقسوة ، وأن الله إذْ سمح به ـ تمشياً مع السنن الكونية التى أنشأ الحياة عليها ـ ينفذه جلَّ شأنه وهو أرضى ما يكون على عبده وأرغب ما يكون فى الإحسان إليه .

وتأمَّل قوله عزَّ وجل فى حديثه القدسى : «**من أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة وما ترددت فى شىء أنا فاعله تردُّدى فى قَبْض نفسِ عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابدَّ له منه**»(١) .

يا عجباً !! ما هذا الحنوُّ البالغ ، وهذا العطف السابغ؟!

الموت حقٌ ما منه بدٌّ ، والله يريد إنفاذ قضائه الحتْم .

لكن العبد يكره الموت .

والله لا يحب أن يَشْعر عبده بأنَّ إساءةً جاءته من عند ربِّه .

فانظر إلى هذا التصوير فى إيقاع القضاء ، وما تنضح به عبارة : «ما ترددّتُ فى شىء أنا فاعله تردُّدى فى فعل هكذا . .» .

إنَّ كل ما يدلُّ على قسوة أوسخط مُنْتَفٍ بتَّةً من جانب الله فيما تتعرض له حياة الأبطال والأمجاد من كبوات وآلام اقتضتها طبيعة النَّسَق العالى الذى يَحْيَون فيه .

(١) البخارى .

وهؤلاء الأمجاد ـ من الناحية الأخرى ـ يستقبلون أقضية الله بتسليم وبشاشة .

ويكفى أن يلحظوا مجيئها من الله لتتبدَّل وعورتها سهولة ، ومرارتها عذوبة .

فهى أمام الأنظار المعتادة كأنها أرزاء لا تُحتمل .

وأما هى بالنسبة إلى من سيقت إليهم فأعراض خِفاف أولِطاف .

لو أن أهل الإقدام ينظرون إلى الحتوف نظرة الجبناء إليها ما ثبت منهم أحد ، لكنهم يحتقرون ما أعظمه هؤلاء ، فيُقبلون بينما هؤلاء يولُّون الأدبار .

كذلك أهل الإيمان ينظرون إلى الأحداث الضخمة على ضوء علاقتهم بالله ، فمايملكهم فزع أويضطرب لهم فكر .

وإذا توجّسوا من خطر فوق طاقتهم فزعوا إلى الله كما يفزع الطفل إلى أحضان أبيه ، يتّقى به المكروه وينشد لديه الحماية .

وفى الحديث : **كان النبىُّ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فزِع إلى الصلاة**[1] .

ويقول «ديل كارنيجى» : (تُرى لماذا يجلب الإيمان بالله والاعتماد عليه ـ سبحانه وتعالى ـ الأمان والسلام والاطمئنان؟

سأدعُ «وليم جيمس» يجيب عن هذا السؤال : إنَّ أمواج المحيط المصطخبة المتقلِّبة لا تعكِّر قط هدوء القاع العميق ، ولا تقلق أمنه ، وكذلك المرء الذى عمَّق إيمانه بالله خليق ألاَّ تعكّر طمأنينته التقلُّبات السطحية المؤقتة .

فالرجل المتديِّن حقاً عصىٌّ على القلق ، محتفظ أبداً باتِّزانه ، مستعدٌّ دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتى به الأيام من صروف .

فلماذا لا نتجه إلى الله إذا استشعرنا القلق؟ . . ولماذا لا نربط أنفسنا بالقوة العظمى المهيمنة على هذا الكون؟ لا يقعدنَّ بك عن الصلاة والضراعة والابتهال أنك لست متديِّناً . .)

❋❋❋❋

(١) البخارى .

والصلاة فى الإسلام تعنى شيئين ، أحدهما خاص ، والآخر عام :

أحدهما هذه الوجبات الروحية الموزّعة على آناء الليل وأطراف النهار متضمنة أفعالاً شتى من قراءة ، وتسابيح ، وخشوع ، وتنزيه ، وركوع ، وسجود ، وقيام ، وقعود ، وفق ما رسم لها الشارع من صور وهيئات .

وهذه الصلاة ركن فى الإسلام لا يُعفَى مؤمن من أدائها ، وهى لقلبه ويقينه كالغذاء لجسمه .

فمن حافظ عليها صحَّ دينه ، ورَبَا إيمانه ، وترشَّح لغفران الله ورضوانه .

ومن تهاون بها مع علمه بحقِّها وثمرتها تعرَّض للضياع والهَلَكة .

قال رسول الله ﷺ : «**خمس صلوات افترضهنَّ الله ، من أحسن وضوءهنَّ وصلاَّهنَّ لوقتهنَّ ، وأتمَّ ركوعهنَّ وسجودهنَّ وخشوعهنَّ كان له على الله عهدٌ أن يغفر له . ومن لم يفعل فليس له على الله عهد ؛ إن شاء غفر له وإن شاء عذَّبه**»(١) .

أمَّا من أهملها عن جُحْد واستهانة فهو أقل من أن ينسب إلى إيمان أويحترم له دين .

وقد تعنى الصلاة الدعاء المطلق .

كلما ساورت الإنسانَ حاجةٌ ، أو أقلقه همّ ، أوهدَّده مرض ، أو أزعجته أزمة هرع إلى الله يستنجد به ويسأله الرحمة والعافية .

والإسلام مشحون بمئات الأدعية التى أحصت تقريباً كل ما يعرض للإنسان من رغبة ، أويرهب من محذور ، أويستزيد من نعمة .

وقد وُضعت هذه الأدعية المفصَّلة كلُّها بين يدى الإنسان ، ليجأر بها إلى الله كلما جاش بفؤاده شعور .

والجميل أنَّ الله يحبُّ من عبده أن يطلب منه ما يبتغى ، وأن يسأله من فضله كيف شاء .

بل إنَّ الله يحذِّر الإنسان من الاكتفاء بقواه الخاصة .

---

(١) أبو داود .

فإنَّ هذا القصور يحرم صاحبه بركات العناية العليا ، ويسجنه طول حياته فى حدود ضعفه وجهله .

وفى الحديث القدسى :

«ياعبادى كلُّكم ضالٌّ إلاَّ من هديته ، فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى كلُّكم جائع إلاّ من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى كلُّكم عارٍ إلاّ من كسوته ، فاستكسونى أكْسُكُمْ .

يا عبادى إنَّكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم» .

أرأيت هذا الإلحاح فى ردِّ الإنسان التائه إلى ربه ليتزوّد منه ، ويستقوى به ، ويعتمد عليه . .

إنَّه ما يُحرم من هذا الخير المبذول إلاَّ شقى مسكين .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « **لاتعجزوا فى الدعاء ، فإنّه لايهلك مع الدعاء أحد**»[1] .

وقال : «**الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض**»[2] .

وقال : «**إنَّ الله حييٌّ كريم ، يستحى ـ إذا رفع الرجل إليه يديه ـ أن يردَّهما صفراً خائبتين**»[3] .

وقال : «**سلوا الله من فضله ، فإنَّ الله يحب أن يُسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج**»[4] .

(١) مسلم .
(٢) الحاكم .
(٣) أبو يعلى .
(٤) الترمذى .

كم من عبقريات مرغتها فى الوحل خصومات خسيسة !!

إن وقائع الحياة أعتى مما نتمنى ، ودسائس الحاقدين ومكايدهم ومؤامراتهم لاتنتهى حتى تبدأ .

إن الحال فى كل زمان تحتاج إلى أمداد سريعة من المساندة أو العزاء لتعيد إلى الموهوبين ثقتهم بأنفسهم وتشجعهم على المضى فى طريقهم دون يأس أو إعياء ..

إنهم فى حاجة لأن يقال لهم : لا تأسوا ، فإن ما تتوجسون من نقد أو تجاهل هو كِفَاء ما أوتيتم من طاقة ورسوخ .

محمد الغزالى

روحَانيَّة الرسول

للنفوس المعتادة لحظات تصفو فيها من كدر ، وترقُّ من غِلْظة ، وترقَى إلى مستوى يحلِّق بأفكارها ومشاعرها إلى جو نقىّ طهور .

لكنها لا تلبث طويلاً حتى تهبط إلى أفقها الدانى ، لتعيش فيه أكثر وقتها ، ولترمق سُوَيعات الكمال التى تعتريها ، وكأنها ألَق عارض ، أومعنى نضح من عالم بعيد .

وللنفوس العظيمة مجالٌ أرحب مدى ، وأطولُ امتداداً ، تشرف فيه على الحياة ولها فكر أوعى ، وشعور أقوى .

وتستقيم على نهج من السلوك الرفيع قلَّما تزِلُّ عنه .

فهى كالطير الذى ألف الذرا لا ينحطُّ دونها إلاَّ لماماً .

وإذا هبط فما يبقى إلاّ ريثما يرفرف بجناحيه صُعُداً إلى حيث يعيش .

كذلك خلق الله الناس ، وكذلك درجوا منذ الأزل .

فهم بين عامة مغلولين فى قيد من مطالبهم المحدودة ، وربما انفكّوا عنه حيناً .

وبين خاصَّة أمكنهم الخلاص من أغلب هذه القيود ، وربما تشبَّث أحدها بأقدامهم فأرهقهم حيناً .

وإذا كان شأن العامة أنزل رتبة من شأن الخاصّة ، فإنّ هؤلاء الممتازين أنفسهم ، يقع بينهم من التفاوت فى الخير والفضل ما يشبه التفاوت بين أبعاد الكواكب .

بعضها يفكِّر الناس فى الوصول إليه ، لأنه ـ وإن بعد ـ قريب .

وبعضها تنقطع الأوهام دونه ، لأن الشّقة إليه لايقطعها إلاّ الخيال الشرود .

والفروق بين عظماء الناس لا يدركها حصر .

وقد اقتضت حكمة الله أن يختارَ حَمَلة الوحى الأعلى من الصَّفْوة المنتقاة بين هؤلاء الخاصة ، وهى صفوة مبرِّزة فى كل شىء .

فلو أقيم سباق عامٌّ بين أُولى المواهب الناضجة ، والقرائح القوية ، والمعادن الصافية ، والأبدان النقية ، لَكان أنبياء الله ـ وحدهم ـ أصحابَ السَّبْق فيه .

إنَّ الأنبياء رجال لا يُدانَون فى ذكائهم ، وصلابة عزائمهم ، وبُعد هممهم ، وسعة فطنتهم ، وإدراكهم الشامل لحقائق النفوس وطبائع الجماعات .

ومن الخطأ الجسيم أن تحسب أولئك المرسلين على قدر ما من «الطيبة» والسذاجة ، رشحهم لقيادة بعض الناس فى عصور التخلُّف والبساطة .

كلا ، كلا ، فإنَّ زعامة الأمم فى القديم والحديث لا تنعقد صِدْقاً إلاْ لرجال أُوتوا من المقدرة النفسية ما يوطِّئ لهم الأكناف ، ويجمع حولهم الآلاف .

وقد أومأ القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فى قوله :

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾[1]

فهل فقهت أسرار العظمة فى أطواء هذا الوصف الموجز ؟ أُولى الأيدى والأبصار!! أصحاب القِوَى الفارهة ، والأبصار النيِّرة .

أصحاب الإقدام الذى لا يشوبه عَجْزٌ ، والنظر الذى لا يشينه جهل .

إنهم مستخلَصون من أجيال الدنيا ، كما تستخلص أطايب البستان النَّضِر فى هدية مستحبة ، قد يُترك فيها الجميل إلى ما هو أجمل منه .

ذاك هو معنى الاصطفاء .

❋❋❋❋❋

فى ماضى الحياة ، وحاضرها ، ومستقبلها ، كان الوحى الإلهى ـ ولا يزال ـ العاصم الذى يمسك الأرض أن تزول ، والحضارات أن يلتبس فيها الرُّشد بالغى .

ولن يخطئك ـ وأنتَ تَرْمُق سَدَنة هذا الوحى المبارك ـ أن تستجليَ هامة شمّاء تَوَّجها الجلال والأدب ، وزانها اليقين والصدق ، برَّزت بين هداة السماء بروزاً كاد يحجب ما حوله .

(١) سورة ص : ٤٥ ـ ٤٧ .

مَنْ هؤلاء الدعاة الكرام؟ . ومَنْ ذلك العَلَم الباسق؟ .

هؤلاء النبيّون الذين وُكِل إليهم أن يهدوا الناس رَدْحاً من الزمن فى العصور الأولى .

أمّا هذا النبى المتفرّد ، فقد كُلِّف أن يهدىَ الناس الدهر كلّه ، وأُرسل بكتاب يبقى بينهم ، ما بقى الليل والنهار !! .

وسط أولئك الصالحين المُصْلحين تلمح ـ فى خشوع وتوقير ـ محمد بن عبدالله صاحب الرسالة الخاتمة ، وملتقى العقائد والفضائل التى ناط القَدَر بها صلاحَ الأوَّلين والآخرين ،

إنَّه المُثُل العليا كلُّها فى إطار من اللحم والدم ، تستطيع أن تعرفه فى يسر من الكتاب الذى جاء به ، ومن الحكمة التى يتفجَّر بها منطقه .

بَيْدَ أنكَ لن تستطيع الاتصال به إلاّ إذا نشدتَ لنفسك المُثُلَ الرفيعة التى تحيا فى سيرته .

أما الواقفون مع أنفسهم فى بداية الشوط ، فهيهات أن يرتبطوا به .

العُصاة الذين يبغون التوبة ، والجهَّال الذين يطلبون العلم ، والحائرون الذين يبحثون عن قرار ، والقاصرون الذين يسعَون وراء الكمال ، أولئك جميعاً فى جهادهم لبلوغ أهدافهم سوف يعرفون الكثير عن «محمد» لأنهم سيهتدون بآيِه ، وينتفعون بنصحه .

ولن يعرف «محمداً» أبداً من سَفِه نفسه ، وحَقَر عقله وقلبه .

إنَّ من خصائص القيادات الروحية الكبرى أنَّها تقدحُ زِناد النشاط الإنسانى فيمن اقترب منها ، وتطلقُ قواه الكامنة ليخدمَ الحقيقة الكبرى فى حدود ما أُوتى .

وإذا كان الزعماء القوميّون يتيحون فرصاً واسعة لخدمة الوطن مثلاً عندما يهبُّون للنهوض به وإعلاء شأنه ، فالقادة الروحيون يهيئون لأتباعهم وحواريِّيهم فرصاً أوسع لإحراز الكمال ، ثم لغرسه فى دنيا الناس ، لتحلو به هذه الدنيا وتعلو .

ومن ثَمَّ قلنا : لا يعرف محمداً ﷺ من احتبس فى سجن الدنايا ، أوقعد عن نصرة الحق والخير .

وينابيع الحياة العاطفية والفكرية فى نفس الرسول الكريم « محمد بن عبد الله» تجىء من معرفته الساطعة بالله ، وذكره الدائم له ، وأخذه بنصيبه الضخم من معانى الكمال فى أسمائه الحسنى .

ذلك أن الله خلق آدم على صورته ، واستخلفه فى هذه الأرض ليكون نائباً عنه ، ومكَّنه منها ، بل كلَّفه أن ينشط فى استغلال خيرها وامتلاك أمرها ، ووصاه أن يحترم أصله الإلهى العريق ، فلا يتدلَّى عنه إلى نزعات الطِّين ، ووساوس الشياطين .

يجب أن يكون عالماً ماجداً ، قادراً كريماً ، رحيماً مُنْعماً وهَّاباً ، إلى آخر ما ترمز إليه أسماء الله الحسنى من صفات الكمال وشارات العظمة والجمال .

والعالم ـ من أزله إلى أبده ـ لا يعرف إنساناً استغرق فى التأمُّل العالى ، ومشى على الأرض وقلبه فى السماء كما يعرف فى سيرة محمد بن عبدالله ﷺ .

إنَّه خير من حقّق فى نفسه وفى - الذين حوله - حياة الإنسان الكامل .

الإنسان الربانىُّ المستخلَف فى ملكوت الله لينقل إليه أطرافاً من حقيقة هذه الخلافة الكبيرة .

وفى المواريث العقليّة والعاطفيّة التى تركها هذا النبى الكريم ترى كل العناصر التى يستطيع بها أىّ إنسان أن يقوم بوظيفته الصحيحة فى هذه الحياة

انظر إلى قوة العاطفة ودفقها فى هذه المناجاة الحارّة :

روى الإمام أحمد وأبو دواود والنسائى عن زيد بن أرقم أن النبى ﷺ كان يقول دُبُر صلاته :

«اللهم ربَّنا وربَّ كل شىء .

أنا شهيد أنّك الربُّ وحدَك لا شريك لك .

اللهم ربّنا وربَّ كلِّ شىء ، أنا شهيد أنّ محمداً عبدُك ورسولُك .

اللهم ربّنا وربَّ كل شىء ، أنا شهيد أنّ العباد كلهم أخوة .

اللهم ربَّنا وربَّ كل شىء ، اجعلنى مخلصاً لك وأهلى فى كل ساعة من الدنيا والآخرة .

ياذا الجلال والإكرام ، اسمع واستجب .

الله الأكبر الأكبر ، نور السموات والأرض .

الله الأكبر الأكبر ، حَسْبى الله ونِعْم الوكيل .

الله الأكبر الأكبر» .

إنَّ ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحقة هذا الجيَشان المنساب فى كل دعوة ، تجعل الرسول المنيب المتعبِّد يلجأ إلى التكرار فى العبارة الواحدة لينفِّس عما استكنَّ فى صدره من رَوْعة ومحبة وإجلال .

إنَّه فى ظاهره ترداد للفظ واحد ، وهو فى باطنه تعبير عن معانٍ متجدِّدة من الولاء والهيام .

ويستوقفك فى هذا الدعاء أن تتوسط شهادة النبى لشخصه بالرسالة بين توحيد الله والإقرار بأنَّ العباد كلَّهم إخوة .

ما معنى أن يقول محمد لربِّه : «أشهد أنّ محمداً عبدُك ورسولُك»؟

ذلك ضرب من الإصرار على تحمُّل الأمانة وإبلاغ الرسالة للنَّاس كافة ، مهما كذَّبوا بها وتنكَّروا لصاحبها .

إنَّ الرجل الذى يحسُّ بأنَّ العالم أجمع يستغرب بعثته ، وأنَّ قوى الشر فيه تحاول زحزحته ، وأنَّها قد تفلح أحياناً فى الكيد له وإشعاره بالعزلة والضعف ، إنَّ هذا الرجل يرى من الطبيعى أن يشهد لنفسه بالحق لتكون هذه الشهادة المتكرِّرة ردّاً بليغاً على المُرْجفين والمكذِّبين .

وهى تجىء بعد أن يقذف الروح الأمين فى قلبه شهادة أخرى من الله ومن الملأ الأعلى ، تؤكد هذه الحقيقة : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾(١)

وإنَّك لتسمع دوىّ الوحى وهويرسل هذه الشهادة مرة أخرى ، فتحسّ فى نبراتها زمجرة صاحب الحق وهو يجابه المفترين ويخجلهم من باطلهم ، ويمضى فى ذكر ما عنده من صدق بيِّن ، وأدلة دامغة :

(١) سورة النساء ، آية : ١٦٦ .

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾(١)

والمُشاهد فى سيرة رسول الله ـ ﷺ ـ أنَّ حِدَّة الانتباه الذهنى تسودها كلَّها .

فأمثالنا قد يثور انتباهه لبواعث مفاجئة ، ثم تركد مشاعره لزوالها .

أمَّا هذا النبى الكريم فهو فى نهاره مستجمعُ الفكر مركَّزُه ، لا يكاد يمسُّه فتورُ أوذهول عن شىء ، دقَّ أوْ جَلَّ .

فإذا نام نضحت هذه الحساسية الشديدة على حالته النفسية ، فهو فى رقاده يقظان القلب .

ونبهةُ النهار ويقظةُ الليل تقوم على هذا الاتجاه المستمر إلى الله ، والتشبُّث العجيب بذكره .

إذا أَوى إلى فراشه قال : «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسى إلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرى إلَيْكَ ، وأَلْجَأت ظَهْرى إلَيْكَ ، رغبَةً وَرَهْبَةً إلَيْكَ ، لا مَلْجَأَ ولا مَنْجَى منْكَ إلاَّ إلَيْكَ . اَمَنْتُ بِكِتَابِك الذى أنزلتَ ، وَبِنَبِيِّك الذى أَرْسَلْتَ** »(٢) .

انظر إلى هذا التفانى فى مرضاة الله ، ثم إلى هذا الختام الذى يُعلن فيه الرسول إيمانه بنفسه وكتابه .

إنه ـ كما أَبَنَّا ـ عزيمةٌ وإصرار .

وهو كذلك إقرار من الداعية أنه أول من يصدع بواجبات دعوته ، وأول من يلبِّى مطالب رسالته ، وأول من يطيع أمر الله ، وينفذ حكمه ، ويقيم حدَّه ويُعلى شعائره .

روى ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان النبى ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال :

(١) الأنعام : ١٩ . (٢) البخارى .

«اللَّهُمَّ لَكَ الحمْدُ ، أنتَ قَيِّمُ السمَّواتِ والأرْضِ ومَنْ فِيهنَّ .

وَلَكَ الحمْدُ ، لَكَ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ .

وَلَك الحَمْدُ ، أَنتَ نُورُ السَّمواتِ والأرْضِ ومَنْ فِيهِنَّ .

وَلَكَ الحمدُ ، أَنْتَ الحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ ، ولقَاؤُك حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، والجنَةُ حقٌّ ، والنارُ حَقٌّ ، والنَّبيُّونَ حَقٌّ ، وَمحمَّدٌ حَقٌّ ، والسَّاعَةُ حَقٌّ» .

«اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ؛ وإلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ؛ وإلَيْكَ حَاكَمْتُ ؛ فاغْفِرْ لى مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمُقدِّمُ وَأَنْتَ المؤخِّرُ ، لاَ إلَهَ إلا أَنْتَ ، وَلاَ حَولَ وَلاَ قُوَّةَ إلاّ باللهِ»[1] .

ونحن فيما نألف من تجاربنا نرى أن حياة التأمُّلِ المحض والمناجاة الحلوة ، لا تخلص لصاحبها إلاّ بعيداً عن الناس ، وفى نَجْوة من لَغْوهم العريض ، وشئونهم التافهة .

ومن ثَمَّ فهى لا تُعْرَفُ إلاَّ لأصحاب الأبراج العاجية ، والصوامع القصيّة من الأدباء المترفعين ، أوالعباد المنقطعين .

والحقُّ أنَّ للجماهير ظلالاً كثيفة ، ومطالب وأهواء لا تنتهى .

وقلَّما يبصر نفسه مَنْ يُلقِى بنفسه فى غمارهم الموَّار .

إلاَّ أن الدارسين لحياة النبى العظيم «محمد» ﷺ يَرَوْن فى مسلكه ما يخالف هذه العادة المأثورة عن بعض الممتازين من الناس .

فهو قد عالج من قضايا المجتمع ومشكلات الأفراد ، وأحوال الأصدقاء والخصوم ، ودقائق الحرب والسلم ، وبلاَ من أطوار النفوس ، وتقلُّب المشاعر ، واختلاف الأفهام ما لم يتح مثله لبشر آخر .

ومع ذلك فإنَّ صفاءه النفسىَّ ، وتوقُّده العقلَّى لم تَشُبْهما شائبة .

كان يترك أثره العميق فى الآخرين ، ولا يتأثر هو بما فى نفوسهم من ضيق وانحصار . إنه موجِّه يدفع ولا يندفع .

---

(١) البخارى .

ورقيُّ معنوياته جزء من صميم ذاته ، لا يمكن أن يتخلَّف عنه ، أوتتفاوت قيمته بين ارتجال وإعداد .

أما كثير من العظماء فارتقاؤهم الأدبى عَرَضٌ اكتسبوه بوسائل معينة ، وضوابط خاصّة .

وهم على حق إذ يتوجَّسُون من ضياعة ، أونقص حرارته ، مع مخالطة الجهَّال والدَّهْماء .

لكنكَ ترى هذا النبيَّ الجليل بين أفواج الأعراب ، وصخب الجماعات المختلفة يرسل كَلِمَه الرتيب فلا تدرى بأيهما تعجب؟ .

برقَّة الروح الذى يصحب عباراته ، أم بروعة التنسيق الذى يؤلف بين ألفاظه؟! .

وكلا الأمرين لا يقترب منه إلاّ صاحب قلم ينشد الصفاء لنفسه ، والهدوء لفكره ، ثم بعد ذلك يكتب فى رَوِيَّة وأناة وَمَهل .

ولاريب فى أن مصدر هذا العلوَّ الدائم ، والقوة المصاحبة هو ما أشرنا إليه آنفاً من اتصال قلبه بربّ الأرض والسماء ، وجريان فكره فى نسقٍ لاتدركه الخاصةَ بَلْهَ الدهماء .

❋❋❋❋

وطبيعى أن يعيش صاحب هذه الرسالة طيلة عمره مُبَرَّأً من كل عيب منزَّهاً عن أيَّة ملامة .

لا يؤثر عنه فى سرّه وعَلَنه ورضاه وسخطه إلاّ ما تهوى العُلا .

ما من كبير إلاَّ وله سقطة ، حتى لقد تواضع الناس أن يغتفر بعضهم لبعض هَنات أوسيئات لا بدَّ أن يواقعوها .

لكن هناك صنفاً من الناس ليس فى شرابهم قَذَى قطُّ .

هم المصطَفَوْنَ الأخيار من عباد الله .

وفى الطليعة الوضَّاءة من هذا النَّفر النقىِّ إمامٌ فَذّ ، ورحمة مُهْداة ، ونبى معصوم . هو محمد بن عبدالله .

صلوات الله عليه فى الأولين والآخِرين .

❋❋❋❋

بقدر قيمتك يكون النقد الموجه لك

رذيلة الحسد قديمة على الأرض قِدَم الإنسان نفسه .

ما إن تكتمل خصائص العظمة فى نفس ، أوتتكاثر مواهب الله لدى إنسان حتى ترى كلَّ محدود أومنقوص يضيق بما رأى ، ويطوى جوانحه على غضب مكتوم ، ويعيش منغَّصاً لا يريحه إلاَّ زوال النعمة ، وانطفاء العظمة ، وتحقق الإخفاق .

وقد كنتُ أظنُّ أنَّ مسالك العظماء ، وأنماط الحياة المترفِّعة التى تميَّز تفكيرهم ومشاعرهم هى السبب فى كراهية الساقطين لهم وتبرُّمهم بهم .

ثم تبيَّنتُ خطأ هذا الظنِّ ، فكم من موهوب لا تزيده مَجَادته إلاَّ تقرباً إلى الناس وعطفاً عليهم .

ومع ذلك فإنَّ التعليقات المرة تتبعه ، وكذلك التشويه المتعمَّد لآثاره الطيبة ، والتضخيم الجائر لأخطائه التافهة!!

فما السر إذن ؟

السر أنَّ الدميم يرى فى الجمال تحدِّياً له ، والغبى يرى فى الذكاء عدوانا عليه ، والفاشل يرى فى النجاح إزراءً به ، وهكذا . . !!

فماذا يفعل النوابغ والمبرِّزون ليريحوا هذه الطبائع المنكوسة؟ .

إذا محاسنىَ اللاَّتي أُدِلُّ بها كانت ذنوباً ، فقل لى : كيف أعتذر؟

وقد رأى أحد العلماء أن يضع حدَّاً نفسيّاً لهذا العراك بين أُولى الفضل والمحرومين منه ، فقال :

إن يحسدونى فإنى غيرُ لائمهم قبلى من الناس أهلُ الفضل قد حُسِدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بِهِمُوا ومات أكثرُنا غَيْظاً بما يجد

وليت الأمر ينتهى باستجابة هذا الدعاء .

إنَّ وقائع الحياة أعتى ممانتمنَّى ؛ ودسائس الحاقدين ومكايدهم ومؤامراتهم لا تنتهى حتى تبدأ .

وهم يصلون فى أحيان كثيرة إلى ما يشتهون من سوء .

وكم من عبقريات مرَّغتها فى الوحل خصومات خسيسة!! .

إنَّ الحال فى كل زمان تحتاج إلى أمداد سريعة من المساندة أوالعزاء لتعيد إلى الموهوبين ثقتهم بأنفسهم ، وتُشجِّعهم على المضىِّ فى طريقهم دون يأس أو إعياء .

وذلك لكثرة ما يصيبهم من تعويق المثبِّطين وإيذاءالناقمين والشامتين .

أجل ، إنَّهم فى حاجة لأن يقال لهم : لاتأسَوا ، فإن ما تتوجَّسون من نقد أوتجاهل هو كِفَاء ما أوتيتُم من طاقة ورسوخ .

قال «ديل كارنيجى» : (كثير من الناس يجدون تشفِّياً فى اتهام شخص يفوقهم ثقافة أومكانة أونجاحاً ، مثل ذلك أننى تسلمتُ رسالة من سيدة تصبُّ فيها جام نقمتها على «جنرال وليم بوث» مؤسس «جيش الخلاص» .

وكنتُ قبل ذلك قد أذعتُ حديثاً فى الراديو أمتدح فيه الرجل وأثنى على جهوده .

وقد كتبتْ إلىَّ هذه السيدة تقول : « إنَّ الجنرال بوث اختلس ثمانية ملايين دولار من المساعدات التى جمعها للفقراء والمساكين . . »

والحقُّ أنَّ التهمة سخيفة ، وهذه المرأة ما كانت تستهدف الواقع ، وإنَّما كانت تبغى النيل من رجل عظيم ، رجل أرفع منها بمراحل .

وقد ألقيتُ برسالتها فى سلَّة المهملات ، وحمدتُ الله على أنِّى لستُ زوجاً لهذه المرأة . !

فإنَّ الرسالة لم تزدنى علماً بالجنرال «بوث» كما تبغى كاتبتها ، وإنما زادتنى علماً بالكاتبة نفسها ، فكما قال «شوبنهاور» : ذوو النفوس الدنيئة يجدون المتعة فى البحث عن أخطاء رجل عظيم .

قال : وقلَّما يصدِّق المرء أن رئيساً لجامعة كبرى يمكن أن يُسْلَك فى عداد ذوى النفوس الدنيئة .

ولـكن المـدير السـابق لجامعة «ييل» وهو «تيمونى داويت» وجد متعة كبيرة فى سَـوق الاتهـامات المغرضة المكذوبة ضد الرئيس «توماس جيفرسون» العظيم، محرر وثيـقة الاستقلال !!) .

إنَّ «مدير جامعة» منصب علمى جليل، وجدير بمن يَلُونه أن يكونوا آياتٍ فى النُّبل والسموِّ، لا قادة لحملات التضليل والافتراء .

ولكن الروابط مفكوكة بين كِبَر الوظائف وكِبَر النفوس .

وكم بين كبار الموظَّفين من رجال تصرفهم الأَثَرَة وحدها، ويُضريهم الاستعلاء وتنازع السلطان واجتياز المنافع واسترضاء الأتباع!! .

أمَّا الصور الكالحة للحسد، الطامسة للحق، المرهقة للضمائر، فهى بين أولئك الكبراء فى مناصبهم، المرموقين بالتجلَّة والاحترام فى أغلب الأحيان .

ومنذ أربعة عشر قرناً ظهر «محمد بن عبدالله» فى العرب .

وكان أصحاب الرياسات الدينيةالمبجَّلة من الأحبار والرهبان قد أحسُّوا نبأه، والتفُّوا به ليستوثقوا من صدق دعوته وصحَّة رسالته .

ولم يحتج الأمر إلى طول تمحيص، فسرعان ما أيقن القوم أنّهم أمام رسول من ربّ العالمين، يجب أن يؤمنوا به، وأن ينضموا إليه .

بَيْدَ أنَّهم طوَوا أنفسهم على هذه الحقيقة، وكرهوا ـ عن تجاهل لا عن جهل ـ أن يذكروها بَلْهَ أن ينشروها !! ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(١)

ولِمَ ذلك الكتمان؟ حفيظةُ ذوى النفوس الدنيئة عندما تلمح دلائل العظمة والمجد قد ساقتها الأقدار إلى إنسان !! .

هو الحسد . . !!

ولستُ أعرف منظراً أشوهَ ولا أقبحَ من كاهنٍ أو واعظ يتحدَّث عن الله بلسانه، ومن وراء أرديته الفضفاضة ووظيفته الدينية نفسٌ ترتع فيها جراثيم الأنانية الصغيرة والتطلُّع الخسيس .

---

(١) البقرة : ١٤٦ .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾(١)

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾(٢)

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ ﴾(٣)

والغريب أنَّ الأحبار والرهبان مضَوا فى معركة الحقد ـ لا الحقِّ ـ إلى نهاية الشوط .

فألَّبوا أتباعهم الأغرار ضدَّ الدين الجديد ونبيِّه ، وأشاعوا حوله قالة السوء ، وأثاروا بموقفهم حروباً طاحنة ماكان أغنى الدنيا عنها لو تطهَّرت النفوس من هذه الغَيْرة الشخصية السيئة .

وأظنُّ أنَّ الله اختار نبيه الأخير من الأميِّين اختصاراً للمتاعب التى تنشأ لو أنه اختير من آباء الكنيسة .

وهذا كلام أقوله بعدما بلوتُ العمل فى البيئات الدينية بضع عشرة سنة .

فلو كان «محمد» واحداً من أولئك المحترفين ، ثم اصطفته العناية من بينهم ليؤدى رسالة الصلاح والإصلاح ، لقال كاردينال عجوز : أنا أسنُّ منه !! .

ولقال ثان : أنا أسبق منه فى الخدمة .

ولقال ثالث : إن كان عالماً فليس إداريّاً ، وإن كان إدارياً فليس بعالم مثلى!! .

ولقال رابع : إنه يخطىء فى إقامة الطقوس!! .

ولا تَّهمه خامس بكذا ، وسادس بكَيْت!! .

(١) البقرة : ١٠٩ . (٢) النساء : ٥٤ . (٣) البقرة : ٩٠ .

ثم يجتمع عليه المتنافرون ، ليشلّوا دعوته ، ويحبطوا رسالته!! .

وقد كان الله قادراً على أن يجعل عيسى واحداً من علماء اليهود ، ولكنه ترك بيئتهم تغلى بأحقادها وبتنازعها على الرياسات والمطامع ، ثم جعل كلامه على لسان طفل ، يُنطقه الوحىّ وهو فى المهد ، لعل الكُهَّان الشيوخ يتَّعظون !! .

و«ديل كارنيجى» يفضح بعض خبايا هذه الغَيْرة الشخصية بقوله : (فى سنة ١٨٦٢ كسب الجنرال «جرانت» لجيوش الشمال ـ فى الحرب الأهلية الأمريكية ـ معركةً حاسمةً ، وبهذا غدا معبود الجماهير فى يوم وليلة وتجاوبت أصداء هذا النصر فى أوروبا نفسها .

ولم تكد تمضى ستة أسابيع على هذا الفوز حتى قُبض على «جرانت» وانتزع جيشه منه .

وبكى القائد المقهور من فرط الإذلال واليأس كما يبكى الطفل ، لكن لماذا قبض عليه؟ لأنه أثار حسد رؤسائه ، وأهاج غَيْرتهم . . .) .

❊❊❊❊

إنَّ النجاة من ظلمات الحياة ومظالم الناس وأحقادهم ليس بالأمر السهل .

لابدَّ لها من أضواء يبعثها ربُّ الفَلَق الذى يستطيع وحده أن يمحو آية الليل بآية النهار !! .

وقد أمرنا الله أن نستعيذ به من شرور الحاسدين ، كما نستعيذ به من شر الليل الغاسق ، ومن صنوف الأذى كلِّها ، سواء حملتها هامَّة أودابة أوإنسان .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾[1]

(١) سورة الفلق .

هذه الاستعاذة ضرورة ، فالذين رُزقوا من النعم المادية أو الأدبيّة ما يغرى الآخرين بتنقُّصهم ، وسد منافذ الحياة والارتقاء أمامهم ، أحوج الناس إلى تأييد الله لهم ، كى يؤدُّوا رسالتهم ويُبرزوا مواهبهم .

ومع أن أنبياء الله أكبر من أن يفقدوا ثقتهم بأنفسهم أمام سيل التكذيب والاتِّهام الذى يرميهم به الحاسدون والكافرون ، فإنَّهم احتاجوا فى كل لحظة إلى معونة الله وتثبيته ، حتى لا يؤثِّر فيهم استخفاف أوتحقير :

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾(١)

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾(٢)

(١) الروم : ٦٠ . (٢) هود : ٣٨ ـ ٣٩ .

كن عصيا على النقد . .

قلت فى كتابى « خلق المسلم » بعد كلام عن فضيلة القوة : تلك طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستمكن ، إنَّه يُضفى على صاحبه قوة تنطبع فى سلوكه كله ، فإذا تكلَّم كان واثقًا من قوله ، وإذا اشتغل كان راسخًا فى عمله . وإذا اتجه كان واضحًا فى هدفه . وما دام مطمئنًا إلى الفكرة التى تملأ عقله ، وإلى العاطفة التى تعمر قلبه ، فقلَّما يعرف التردُّدُ سبيلاً إلى نفسه ، وقلَّما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه . بل لا عليه أن يقول لمن حوله :

﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(١)

هذه اللهجة المقرونة بالتحدِّى . وهذه الروح المستقلّة فى العمل ، وتلك الثقة فيما يرى أنَّه الحق ، ذلك كله يجعله فى الحياة رجل مبدأ متميز ، فهو يعاشر الناس على بصيرة من أمره ، إن رآهم على الصواب تعاون معهم ، وإن وجدهم مخطئين نأى بنفسه واستوحى ضميره وحده .

قال رسول الله ﷺ : « **لا يكُنْ أحدكم إمَّعة ، يقول : أنا مع الناس ؛ إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت !! ولكن وَطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم** »(٢) .

والحقُّ أنَّ الرجل القوىّ يجب أن يدع أمر الناس جانبًا ، وأن يندفع بقواه الخاصة شاقًا طريقه إلى غايته ، واضعًا فى حسابه أنَّ الناس عليه لا له ، وأنهم أعباء لا أعوان ، وأنَّه إذا ناله جُرْح أو مسَّه إعياء فليكتم ألمه عنهم ، ولا ينتظر خيرًا من بثِّهم أحزانه .

ولاَ تَشْكُ إلى خَلْقٍ فتُشمِتَه ... شكوى الجريح إلى الغِرْبان والرَّخَم

(١) الزمر : ٣٩ - ٤٠ .
(٢) الترمذى .

وبعض الأقوياء تتحوَّل عنده قلَّةُ الاكتراث بالناس ، وإساءة الظن بما يبدون من آراء ، أو يكنُّون من مشاعر إلى عاطفة تفيض بالزراية وتمتلئ بالقسوة ، على نحو ما قال « المتنبى » :

ومن يعرف الأيام معرفتي بها وبالناس روَّي رُمْحَه غير راحم

ونحن لا نقرُّ هذا الانحراف فى إهدار القِيَم .

وكلّ ما نوصى به ألاَّ تُعطى العامّة فوق ما لها من حقوق عقلية أو خلقية ، فإن مستويات الجماهير لا تتحكم فى تقرير الحق ، أو تحديد الفضيلة .

بل تُؤخذ الحقائق والفضائل من ينابيعها الأصيلة دون مبالاة بالجاهلين لها أو الخارجين عليها ، وإن كانوا ألوفًا مؤلفة .

وعلى الرجال الكبار أن يبنوا سلوكهم فوق هذه الأسس ، فلا يتبرَّموا بالنقد المثار ، أو يقلقوا لكثرة الهَّجامين والشتَّامين .

قال « ديل كارنيجى » : (قابلتُ ذات يوم « جنرال سميدلى بتلر » الملقب بشيطان الجحيم ، والمعروف بأنه من أحزم القوّاد الذين تعاقبوا على بحرية الولايات المتحدة ، فأخبرنى أنه كان فى صباه طموحاً إلى الشهرة الواسعة ، والجاه العريض ، وقوة الشخصية .

ولهذا كان يضيق بأقل ما يُوجَّه إليه من نقد ، ويهيج لأتفه ما يمسّ الكرامة والكبرياء .

غير أن الأعوام الثلاثين التى قضاها فى البحرية غيَّرت طباعه ، وجعلته أمنع من أن ينال منه النقد .

قال لى : لطالما ذقتُ صنوفاً من الإهانة والإذلال ، وطالما رُميتُ بأنى كلبُ عقور ، وحيّة رقطاء ، وثعلب مراوغ .

ولطالما لعننى خبراء فى فنِّ الشتم فلم يدعوا مقذعاً من ألوان السباب إلا رمونى به!! .فهل ترانى ألقيتُ بالا إلى ذلك كله؟ كلا .

ولـو أنـنى سـمـعت اليـوم واحـداً يسـبُّنى لَمَـا حـوّلت نظرى إليـه لأعـرف من عسـاه يكون) .

والجملة الأخيرة تشبه قول الشاعر العربى فى تجاهل السفهاء :

لو أنَّ كلّ كلب عَوَى ألقمتُه حجرًا لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

إنَ أصحاب الحساسية الشديدة بما يقول الناس ، الذين يطيرون فرحاً بمدحهم ، ويختفون جزعاً من قدحهم ؛ هم بحاجة إلى أن يتحرّروا من هذا الوَهَم ، وأن يسكبوا فى أعصابهم مقادير ضخمة من البرود وعدم المبالاة ، وألاَّ يغترُّوا بكلمة ثناء أوهجاء ، لو عُرِفَتْ دوافعها ووُزِنَتْ حقيقتها ما ساوت شيئاً .

وهَبْها تساوى شيئاً ما ، فلماذا يرتفع امرؤ أو ينخفض تبعاً لهذه التعليقات العابرة من أفواه المُتسلِّين بشئون الآخرين؟! .

إنَّ أحسن ما قيل فى إدراك الجماهير للصواب هو ما جاء فى الآية الكريمة :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾(١)

وقـد وجـد الـكاتب الأمريكى نفسه مضطراً إلى الانصياع لهذه الحقيقة فقال : (لقـد اكـتـشـفتُ من سنوات أنَّنى وإن عجزت عن اعـتـقـال ألسنة الناس حـتى لا يطـلـقوها فىَّ ظـلـماً وعـدواناً ، إلاّ أنَّـه وسـعنى أن أفعل ما هو خيـرٌ من هذا . أن أتجاهل لوم الناس ونقدهم . .) .

ويقول : (إننى أعلم علم اليقين أن الناس لا يشغلهم التفكير فى زيد أوعمرو أكثر من لحظات ، فهم مشغولون بالتفكير فى أنفسهم منذ يفتحون أعينهم على اليوم الجديد حتى يأوون إلى مضاجعهم ، وأنَّ صُداعاً خفيفاً يلمُّ بهم لهو كفيل أن يلهيهم عن خبر موتى أو موتك . .) .

أجـل ، هـذه حـقـيـقـة الناس الذين نهـتمُّ بأحكامـهم علينا ونحسب لرضـاهم وسخطهم ألف حساب .

(١) الأنعام : ١١٦ .

وحرى بنا ـ ونحن نزن آراء الناس ـ أن ننبِّه إلى الملابسات التى تجعل كثيراً منهم يوافق مثلاً ، أو يرفض ، بل يؤمن أو يكفر .

فإن عبد الله بن أُبىّ - كبير المنافقين فى الصَّدْر الأول - ظل ينظر إلى الإسلام نظرة تجهُّم وقلق ، حتى إذا انتصر المسلمون فى معركة « بدر » أسرع الرجل وشيعته إلى الدخول فيه بحجة أنَّ « هذا أمرٌ قد توجَّه » يعنى ثبت واستقر بعدما نال من نصر .

والذين يبنون احترامهم لأمر ما على أساس ما يقارن هذا الأمر من عناصر الغَلَب والظهور كثيرٌ جدّاً فى الناس .

أما الذين يعتنقون الحق المجرَّد ولو أثخنته الهزائم ، ويُغَالون بنفاسته ولو مُرِّغ فى التراب ، فهؤلاء غرباء فى العالم .

العامة للأسف مع صاحب الدنيا ولو كان زَنيمًا .

والألسنة فى إعلاء شأنه قلّما تفترُ رغبة أو رهبة .

ولذلك قيل : **إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه :**

والناس من يَلْقَ خيرًا قائلون له ما يشتهي ، ولأمِّ المخطئ الهَبَلُ

وقد كره النبىُّ ﷺ ألاّ يتحرّك الناس إلاّ تحت ضغط هذه الدوافع الدنيئة ، **فقال : « بئس العبدُ عبدٌ رَغَبٌ يُذلُّه ، بئس العبدُ عبدٌ رَهَبٌ يضلُّه »** .

بَيْدَ أن مشاعر الرغبة والرهبة والمنفعة والحرمان ما تزال السر الدفين وراء كثير من النقد والرضاء والنقمة والتأييد .

وقد كان « إبراهام لنكولن » حريصًا على أن ينتصر فى المعارك التى خاضها ، لماذا ؟

لأنَّ النصر سيقطع جميع الألسنة التى تناوشه .

أما إذا انهزم فلو نزلت الملائكة تعتذر له ما قبلت الجماهير عذره ، ولكانت أسرع إلى تصديق خصومه وقبول الاتهامات التى وُجِّهت له بالحق أو بالباطل .

ولذلك يقول « لنكولن » : (لو أنَّنى حاولت أن أقرأ فقطَ لأرُدَّ على ما وُجِّه إلىَّ من نقد ، لشغل هذا وقتى كلَّه ، ولعطَّلنى عن أعمالى !! .

لكنَّنى أبذل جهدى فى أداء واجبى ، فإذا أثمرت جهودى فلا شىء من النقد الذى وُجّه إلىَّ يهمنى بعد ذلك ، إنه سيختفى من تلقاء نفسه .

أما إذا خاب مسعاى فلو أقسمت الملائكة على حسن نيَّتى ما أجدانى هذا فتيلاً ، حَسْبى فيما يتصل بآراء الناس أنِّى أدّيتُ واجبى وأرضيت ضميرى) .

وبديهى أن المرء يلوذ بهذا الاستعلاء والاستغناء إذا دهمه سيل من هزّات الحاسدين واتهامات الحاقدين ، وكان الحق معه .

أما الانتقاد الصحيح لما وقع فيه من أخطاء ، أو الاستدراك على ما فاته من كمال ؛ فيجب أن نقبله على العين والرأس .

ولو كان النقّاد مدخولى النيَّة ، سيئى القصد .

فسوء نيتهم عليهم وحدهم ، وخيرٌ لنا أن ننتفع بما أجراه القدر على ألسنتهم من تصويب .

ومن يدرى ؟ لعل ذلك الانتفاع يكون أغيظ لنفوسهم المريضة .

والعاقل يتسمَّع ما يقوله أعداؤه عنه .

فإن كان باطلاً أهمله فورًا ولم يأسَ له .

وإن كان غير ذلك تروَّى فى طريق الإفادة منه .

فإنَّ أعداء الإنسان يفتِّشون بدقَّة فى مسالكه ، وقد يقفون على ما نغفل نحن عنه من أمسِّ شؤوننا .

وقديمًا قيل : رحم الله امرءاً أهدَى إلىّ عيوبى ، فمن أهدى إلينا عيوبنا قبلنا هديته فى الحال ، ثم سارعنا إلى إصلاح ما بَطَن وما ظهر من نفوسنا ، حتى لا يبقى مجال لشانىء ، أو فرصة لناهز .

حـــاسب نفسك

ما من عمل مهم إلاّ وله حساب يضبط دخله وخَرْجه ، وربحه وخسارته .

إلاّ حياة الإنسان ، فهى وحدها التى تسير على نحو مبهم لا يُدرَى فيه ارتفاع أو انخفاض .

هل يفكر أكثرنا أو أقلُّنا ، فى إمساك دفتر يسجل فيه ما يفعل وما يترك من حَسَنٍ أو سوء ؟ ويعرف منه بين الحين والحين رصيده من الخير والشر ؟ وحظوظه من الربح والخسارة ؟! .

لو أننا نخبط فى الدنيا خبط عشواء ، ونتصرف على ما يحلو لنا دون معقِّب أو حسيب لجاز على تفريط وحمق أن نبعثر حياتنا كما يبعثر السفيه ماله ، وأن نذهل عن الماضى وما ضمَّ من تجارب ، وأن نقتحم المستقبل غير متهيِّبين خطأ أو خطيئة !! .

فكيف وللّه حَفَظَةٌ يدوّنون مثقال الذرة ، ويُعدُّون لنا قوائم بحساب طويل :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(١)

أمَا يجب أن نستكشف نحن هذا الإحصاء الذى يخصنا وحدنا ؟! .

أما ينبغى أن نكون على بصيرة بمقدار ما نفعل من خطأ وصواب ؟! .

الحقُّ أنَّ هذا الإنطلاق فى أعماء الحياة دون اكتراث بما كان ويكون ، أو الاكتفاء بنظرة خاطفة لبعض الأعمال البارزة أو الأعراض المخوفة ، الحقُّ أن ذلك نذيرُ شؤم .

وقد عدَّه القرآن الكريم من الأوصاف البهيمية التى يُعرَف بها المنافقون الذين لا كياسة لديهم ولا يقين .

(١) الكهف : ٤٩ .

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(١)

وعلماء التربية فى الإسلام متفقون على ضرورة محاسبة المرء لنفسه تمشياً مع طبيعة الإسلام ، وإنقاذاً لقول رسول اللّه ﷺ : «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وزِنُوا أعمالَكم قبل أن تُوزن عليكم**» (٢) . وقوله : «**الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه**»(٣) .

وقد كتب هؤلاء العلماء فصولاً مطوَّلة فى المراقبة والمحاسبة يمكن الرجوع إليها .

ويرى «ابن المقفَّع» أن يسجل الإنسان ما يصدر عنه جاعلاً الصفحة اليمنى للحسنات واليسرى للسيئات .

وإن كان «ديل كارنيجى» يذهب إلى تدوين السيئات فحسب ، على أساس أن المرء يعنيه تلافى أخطائه ، والنَّجاة مستقبلاً مما وقع فيه آنفاً .

قال : (فى أحد أدراج مكتبى ملفٌّ خاص مكتوب عليه : «حماقات ارتكبتها» !! .

وأنا أعدُّ هذا الملف سجلاً وافياً للأخطاء التى وقعتُ فيها ، ، وبعض هذه الأخطاء أمليته ، والبعض الآخر خجلت من إملائه فكتبته بنفسى .

ولو أنَّنى كنت أمينا مع نفسى لكان الأرجح أن يمتلئ مكتبى بأمثال هذه الملفَّات المليئة بالأخطاء والحماقات !! .

وعندما استخرج سجلَّ أخطائى ، وأعيد قراءة الانتقادات التى وجهتها لنفسى ، أحسُّ أننى قادر على مواجهة أقسى وأعصى المشكلات مستعيناً بِعبَر الماضى الذى دَوَّنتُه .

لقد اعتدتُ أن ألقى على الناس تبعة ما أواجه من مشكلات . لكن بعد أن تقدمت بى السن وازدادت حكمتى - فيما أخال - أدركتُ أنَّنى وحدى المسؤول عما أصابنى من سوء .

وفى ظنى أنَّ كثيراً من الناس يصلون إلى هذه النتيجة نفسها عندما يدرسون أنفسهم .

---

(١) التوبة : ١٢٦ . (٢) الترمذى . (٣) المنذرى .

ولقد قال «نابليون» فى منفاه بجزيرة القديسة «هيلانة» : لا أحدٌ سواى مسؤول عن هزيمتى . لقد كنتُ أنا أعظم عدو لنفسى !!) .

❋❋❋❋

فى صدر شبابى الأول كنتُ دقيقاً فى محاسبة نفسى ، وكنتُ أرسم برامج قصيرة الأجل للتطهُّر ممّا أحقرُه من خلال وأعمال ، وأذكر أننى استعنتُ بإحدى المفكِّرات السنوية لإثبات الأطوار التى اتنقل بينها من الناحيتين الذهنية والنفسية ، وإن كنتُ فشلت آخر مرة فى استدامة هذا الأسلوب .

ويرجع فشلى إلى أنَّنى أطلب النتائج المستحبّة بسرعة ، على حين أكون مُحاصراً بظروف لا تسمح بذلك أبداً .

وقد مزّقت هذه المفكرة فى ساعة يأس لأنى نظرت فى صفحاتها - وكنتُ أدوِّن حالتى بأمانة - فوجدتها لا تشير إلى أى تقدم ، كانت أشبه بملفٍّ مريضٍ لا تتغيَّر حالته مع عِظَم وعناء السهر .

وأحسُّ الآن ، أنى أخطأت فى الاستجابه لهذا اليأس ، لأنى نظرت للأمر من ناحية ضيِّقة ، ناحية الحصول على نتائج معينة فى أيام محدودة ، جاهلاً أو متجاهلاً ما يكتنف النفس من وُعورة طباعها الرديئة ، ومن عوائق البيئة التى لا حصر لها .

كنتُ كالسبّاح الذى يعارك أنواء عاتية .

حَسْبُه - إن وقف فى مكانه - أنَّه لم يتأخر ، وأنه لم يغرق .

وهذا ضرب من النجاح ، يتبعه مع الصبر الجميل إحراز النجاح الكامل .

وقد فاتنى هذا الدرس وأنا شاب أتطلَّع إلى الفضيلة والكمال ، وأتعشَّق المُثُل العليا ، ذلك لأن فى بلادنا أزمة طاحنة فى المربّين الأخيار .

وحدث وأنا غلام فى مرحلة التعليم الثانوى أن اجتاح قريتنا حديث عن الأشباح التى تظهر بالليل ، وشعرتُ بوَجَل يملكنى وأنا استمع إلى أنباء هذه الكائنات الخفيَّة ، ثم أنكَرتُ من نفسى هذا الفزع الذى لا ينبغى أن يخامر مؤمناً ، فإن المؤمن يخشى اللّه وحده .

وإذن فلأؤدِّبْ هذه النفس الهلوع ، وبِمَ ؟ بإكراهها على مواجهة ما تخاف . وبعد العشاء اخترقت وحدى أعماء الليل المخيِّم على البلد والحقول .

ودلفتُ إلى المقابر الموحشة الواقعة بعيداً عن العمران !! .

وأخذت أنقِّل خَطْوى بين دروبها الضيّقة ، وعيناى تستشفان كلَّ شىء حولى ، وقلبى لا يفتأ يدقُّ .

وكانت رحلة شعرت من أعماقى بكُرهى لها ، ولكن ما منها فى نظرى بد .

لقد قررتُ أن أدخل هذه المقابر من طريق ، وأخرج من طريق آخر ، وأن أكرّر هذه الجولة فى ليالٍ عدة لأغالب فى نفسى هذا الخوف الذى لا يليق بى .

لقد كنتُ فى ميدان الرياضة النفسية أتعسفُ الطريق أحياناً كثيرة لقلَّة المرشدين الذين يرعَوْن الناشئة ، وندرة الثقافات التى تأخذ بناصيتهم إلى الصراط المستقيم ومع ما خلَّفته فى أعصابى هذه المحاولات المُضْنية ، فلست آسفاً على ما بذلتُ من جهد ، أخطأت فيه أو أصبت ، فَلأَنْ أشتطّ فى حساب نفسى أفضل من أن أدعَها تنطلق من غير حساب .

❋❋❋❋

وكان يمكن أن تكون مواريث التصوُّف فى ثقافتنا الإسلامية هادياً حسناً لوضع رقابة حصيفة على النفس ، تخلِّصها من آفاتها ، وتبلغ بها ما تطيق من آفاق السموِّ ، لولا أنَّ كتب التصوفُّ بحاجة إلى غربلة شاملة تفصل ما فيها من جوهر عما فيها من حصى .

فما أيسر أن يُوصف الداء فى هذه الكتب على أنه دواء !! .

ومن ثَمَّ يختلط الدواء القاتل بالشفاء الصحيح .

وتختلط أقوال المجانين والسفهاء بِحكَم العارفين والفلاسفة .

وقد كان «ديل كارنيجى» شبيهاً بحكماء المتصوِّفة عندما نوَّه بضرورة محاسبة النفس فيما حكاه عن «هـ . ب هاول» من رجال المال الأمريكيين ، فقد كان يخصِّص مساء السبت من كل أسبوع لمراجعة ما كسب واكتسب ، والتأمل فى كلِّ مقابلة تمَّت ، وكل مناقشة دارت ، وكل عمل أنجز .

ثم يسأل نفسه : أى خطأ ارتكبه ، أىّ توفيق صادفه ؟ وهكذا .

قال : (ولعل «هاول» قد استعار هذه الطريقة فى «مراجعة النفس» من «بنيامين فرانكلين» ، إلاّ أن الفارق الوحيد بينهما أنَّ هذا لم يكن ينتظر حتى تحل نهاية الأسبوع ، بل كان ينصب لنفسه هذه المحاكمة العسيرة كل مساء ، وقد اكتشف أن هناك ثلاثة عشر خطأ خطيراً يقترفها على الدوام .

وهذه أهم ثلاثة ، منها : تضييع الوقت سُدَىً ، الانشغال بالتوافه ، والجدال مع الناس على غير طائل .

ورسخ فى ذهن «فرانكلين» أنه ما لم يتخلَّص من هذه الأخطاء فلن يتقَّدم فى الحياة شيئاً يُذكر .

ومن ثَمَّ عمد إلى تخصيص أسبوع لمحاربة كل نقيصة من نقائصه على التوالى ، وأفرد سجلاً يدوِّن فيه يوماً بيوم أنباء انتصاره على نقائصه أو هزيمته أمامها .

وقد لبث الرجل فى حرب ضد أخطائه أكثر من عامين ، فلا عجب أن غدا واحداً من أعظم رجالات أمريكا) .

❋❋❋❋

والحقُّ أنَّ ترويض النفس على الكمال والخير ، وفطامها عن الضلال والشر يحتاج إلى طول رقابةٍ وطول حساب .

إنَّ عمارة دار جديدة على أنقاض دار خَرِبة لا يتم طفْرة ، ولا يتم عن ارتجال وإهمال .

فكيف ببناء نفس ، وإنشاء مستقبل ؟! .

أترى ذلك يتم وليد غفلة وذهول ؟! .

كلا ، لا بُدَّ من حساب دقيق يعتمد على الكتابة ، والمقارنة ، والإحصاء ، واليقظة .

فإذا شئت الإفادة من ماضيك ، بل من حياتك كلِّها ، فاضبط أحوالك وأنت تتعهَّد نفسك .

اضبطها فى سِجلٍّ أمين يحصى الحسنات والسيئاتِ ، ويغالب طبيعة النسيان فى ذهن الإنسان .

خَـــاتـمَة

لكى تصون الحقيقة وتضبط حدودها ، يجب أن تعرف هذه الحقيقة وأن تعرف غيرها معها .

قد تقول : «وما شأن هذا الغير ؟!» .

ولماذا يخدش الجهل به حسنَ التصوُّر للحق المجرَّد ؟ .

والجواب أنَّ الصورة الكاملة لا بدَّ لها من حدود تنتهى إليها ، وعند النهاية المرسومة لهذه الحدود تبدأ حقائق مغايرة .

ولن تتميز معرفة الشىء إلاَّ إذا عُرفت الأغيار المجاورة له أو المشتبهة به ، ولذلك قال الأقدمون : «بضدّها تتميّز الأشياء» .

والناس فى معاملاتهم المالية إذا باعوا عقارًا لم يكتفوا بذكره ، بل شرحوا حدوده الأربعة ، وجعلوا من ذكر القطع المجاورة وبيان أصحابها سياجًا لضبط الحقيقة التى تعنيهم وحدها ، ولا يعنيهم غيرها إلاّ تبعًا لها .

وقد كان «عمر» حريصاً على تعريف الجاهليّة للناس ، لا لأن تعريف الجاهلية دين ، بل لأن معالم الإسلام ومواقع إصلاحه لا تستبين إلاّ إذا عُرفت الظلمات والمظالم التى جاء هذا الدين لتبديدها ومحو شاراتها .

قال «عمر» : «إنما ينحلُّ الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية »!! .

من هنا كان لزاما على كل مشتغل بعلوم الإسلام أن يدرس الحياة كلها ، وأن يتعرف وجوه النشاط البشرى - ومراميه القريبة والبعيدة .

إنَّ ضيق العَطَن ، وسوء البصر بما يقع فى الدنيا وما يُتوقع ، والانحصار فى حدود الفكرة الخاصة ، والاقتناع بجانب من المعرفة دون جانب ، كل ذلك حجاب دون معرفة الإسلام والإفادة من تراثه الضخم فى ميادين الثقافة والتربية ، والفقه والتشريع ، وسياسة الأفراد والجماعات .

والدراسات المقارنة هى فى نظرى أجدى الوسائل للبحث عن الحقيقة ، والظفر بها .

وأنّى أهيبُ بالعلماء المنصفين أن يجيلوا أبصارهم فيما بلغته الآداب والفلسفات من نتائج ، وأن يضمُّوا إلى هذه المعرفة دراسة الإسلام نفسه ، وهم بأيسر مقارنة منتهون إلى ضرورة نفع العالم بهداياته ، ومنع العوائق التى تصُدُّ الناس عنه .

وكلمة أخيرة إلى علماء المسلمين :

إن قصَر باعهم فى علوم الحياة هو أبشع جريمة يمكن أن ترتكب ضد الإسلام .

هذا القصور إن أمسَوْا به فى هذه الدنيا متخلِّفين ، فهم عند اللّه ورسوله أشدُّ تخلُّفاً وأسوأ عقبى .

إنَّ أنفسنا وبلادنا وحياتنا وآخرتنا فى ظمأ هائل إلى مزيد من المعرفة والضياء .

الفهـرس

الموضـوع	الصفحة
مقدِّمـة	٣
جدِّد حياتك	١٢
عِش فى حدود يومك	١٩
الثبات والأناة والاحتيال	٢٤
هموم وسموم	٣٢
كيف نزيل أسباب القلق ؟	٤٣
علم أثمره العمل	٥٠
آفات الفراغ	٥٥
لا تدع التوافه تغلبك على أمرك	٦٠
قضاء وقَدَر	٦٦
بالحق أنزلناه وبالحق نزل	٨٠
لا تبكِ على فائت	٨٦
حياتكَ من صنع أفكارك	٩٠
الثمن الباهظ للقصاص	٩٩
لا تنتظر الشكر من أحد	١٠٨
هل تستبدل مليون جنيه بما تملك ؟	١١٦
أنتَ نسيج وحدَك	١٢٣
اصنع من الليمونة الملحة شراباً حلواً	١٣٤
العمل بين الأثرة والإيثار	١٣٨
نقاء السر والعلانية	١٥١
بين الإيمان والإلحاد	١٥٨
روحانية الرسول	١٨١
بقدر قيمتك يكون النقد الموجَّه لك	١٨٩
كن عصيًّا على النقد	١٩٥
حاسب نفسك	٢٠٠
خـاتمــة	٢٠٥